الأخـــــلاق

فى الـقـرآن والـسـنـة

(الجزء الرابع)

الدكتور

على الخطيب

أستاذ و رئيس قسم الأدب والنقد

وعضواتحاد كتاب مصر وعضو رابطة الأدب الاسلامى العالمية

والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية

فرع جرجا – سوهاج

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

٢١٢
ع . خ

الخطيب ،علي .

الأخلاق في القرآن والسنة / علي الخطيب.- ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

١٧٦ ص ؛ ١٧,٥ × ٢٤,٥سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 344–7

١. الأخلاق الإسلامية

أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٩٤٢٦

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس: ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com
elelm_aleman@hotmail.com

2012

الفهرس

تابع الفهرس

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين قائدنا ، وزعيمنا، وقدوتنا ، سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

أما بعد ،،،،،،،

فهذا هو ذا الجزء الرابع من موسوعة الأخلاق فى القرآن وَالسُنة ، جاءت موضوعاته كما يلى :

التفقه فى الدين ، الإعراض عن اللَّغو، وَصْل ما أمر الله به أن يوصل ، عدم السؤال عما لا يعنيك ، التطوع ، تقديم المشيئة ، الكلام الطيب ، التشاور ، البعد عن رفقاء السوء ، عدم الاختلاط والحجاب للنساء ، الإفاءة إلى أمر الله ، الفداء والاستشهاد والإيثار ، الثقة فى وعد الله ، عدم قبول الرشوة ، ابتغاء الرزق عند الله، الإصلاح ، الإحسان للوالدين ، الإحسان للأقارب . الإحسان لليتامى ، الإحسان للمساكين ، الإحسان للجار ، الإحسان لابن السبيل والسائل ، الإحسان إلى الأبناء ، الإحسان إلى الزوجات.

فإن كنت قد وفقت فللَّه الحمد والمنة ، وإن كانت الأُخرى فحسبي أنى اجتهدت . وأدعو الله– عز وجل – أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون فى ميزان حسناتى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاَّ من أتى الله بقلب سليم.

آمين

التفقه فى الدين

إن الأخلاق فى كتابنا الكريم تحث المسلم على التفقه فى الدين والاستزادة من العلم ، وقد دعا النبي – صلى الله عليه وسلم – لسيدنا " عبد الله بن عباس " – رضي الله عنهما – بقوله : " اللَّهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل". فكان – رضي الله عنه – أعلم الصحابة بتفسير القرآن الكريم ، ولذلك لقب بـ "حبر الأمة وترجمان القرآن " ، وقال – صلى الله عليه وسلم – : " من يرد الله به خيرا يفقه فى الدين " . ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [سورة التوبة:١٢٢]. فمن أخلاق القرآن الكريم دعوة المسلمين إلى التفقه فى دينهم ، والتبصر بسنة نبيهم – صلى الله عليه وسلم – فقال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [سورة التوبة:١٢٢].

هذا بيان من الله – سبحانه وتعالى – لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى غزوة " تبوك " . فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولهذا قال تعالى : " أنفروا خفافاً وثقالاً " .

وقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ [سورة التوبة:١٢٠]. والمعنى : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي – صلى الله عليه وسلم – وحده ، فلولا نفر من كل فرقة عصبة، ويعنى السرايا ، ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع النبي – صلى الله عليه وسلم – . وقالوا : " إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا ، وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أُخرى ، فذلك قوله – سبحانه وتعالى – : " لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ " . والمعنى : ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا السرايا إذا رجعت اليهم لعلهم يحذرون . وقد نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم : ما نراكم إلاَّ وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا . فوجدوا في أنفسهم من ذلك حَرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال الله – عز وجل–: { فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } [سورة التوبة:١٢٢]يبتغون الخير، { لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ } وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله بعدهم ، { وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ } الناس كلهم { رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } .

وقال " قتادة " في هذه الآية : هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش، أمرهم الله ألا يُعرَوْا نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خَــلا قبلهم . وكان رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – إذا غزا بنفسه لم يحلْ لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه ، إلا أهل الأعذار. وكان إذا أقام فاسترت السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلاَّ بإذنه ، فكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن، تلاه رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا . فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين . وهوقوله :{ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً} . يقول إذا أقام رسول الله – عليه الصلاة والسلام -{ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ } يعني بذلك : أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد ، ولكن إذا قعد نبي الله تسرت السرايا، وقعد معه عِظَم الناس.

روى عن ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أوسرية أبدا ، فلما قدم الرسول – صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمين جميعاً للغزو، ففعلوا ذلك وبقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده فنزل { وَمَا كَانَ } إلخ والمراد نهيهم عن النفير جميعاً لما فيه من الإخلال بالتعلم { فَلَوْلَا نَفَرَ } لولا هنا تحضيضية . فإذا لم يكن نفير الجميع ولم يكن فيه مصلحة فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة ليصبحوا فقهاء ، ويتكلفوا المشقة فى طلب العلم ، لينذروا قومهم ويخوفوهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون من عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وعن ابن عباس في هذه الآية : " كان ينطلق من كل حي من العرب عُصْبَة، فيأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - . فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم ، ويقولون لنبي الله : ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا ما نقول لعشائرنا إذا قدمنا انطلقنا إليهم . قال: فيأمرهم نبي الله بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة. وكانوا إذا أتوا قومهم نادوا : إن من أسلم فهو

منا ، وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة.

ويقول " الألوسى " : وكان الظاهر أن يقال : ليعلموا بدل {وَلِيُنذِرُواْ} ويفقهون بدل { لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ } لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم الإرشاد والإنذار وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار. ويقول " صاحب اللَّطائف " : " لو اشتغل الكُلُّ بالنفقة في الدِّين لَتَعَطَّل عليهم المعاش ، ولبقي الكافة عن درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية . ويقال جعل المسلمين على مراتب : فعوامُّهم كالرعية للمَلِك ، وكَتَبَةُ الحديثِ كخُزَّان المَلِك ، وأهلُ القرآن كحُفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه عن الله ، وعلماءُ الأصول كالقُوَّادِ وأمراء الجيوش ، والأولياءُ كأركان الباب ، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالردِّ على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أَرَبٌ ، فَهُمْ بالله لله ، وهم محوعما سوى الله . وأمَّا الذين يتفقهون في الدِّين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يُفْهِمُ الخلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمْ عن الله .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النحل٤٣ :٤٤]. والمعنى: وما أرسلنا من قبلك إلاَّ رجالا ، ولم نرسل ملائكة ، ولا خلقاً آخر. رجالا نوحى إليهم كما أوحينا إليك ، ونكل إليهم التبليغ كما وكلنا إليك . وقوله تعالى " فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ " . والمراد : فأسألوا أهل الكتاب الذين جاءتهم الرسل من قبل، أكانوا رجالاً أم كانوا ملائكةً ، أم خَلقاً آخر. فاسألوهم إن كنتم لا تعلمون. وقد أرسلناهم بالبينات وبالكتب والزبر والكتب المتفرقة . سواء منهم السابقون أهل الكتاب الذين اختلفوا فى كتابهم ، فجاء القرآن والرسول – صلى الله عليه وسلم – يبينه لهم ، ويشرحه بفعله وقوله لعلهم يتفكرون فى آيات الله وآيات القرآن . فإنه يعو دائماً إلى التفكر والتدبر ، وإلى يقظة الفكر والشعور .

وفى المعنى ذاته ، وهوالدعوة إلى التفقه فى الدين يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾[سورة الأنبياء٦ :٨]. والمعنى : قد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر، يتلقون الوحى فيدعون به الناس . وما كان الرسل من قبل إلاَّ رجالا ذوى أجساد ، وما جعل الله لهم أجسادا فم جعلهم لا يأكلون الطعام . فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية . وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين ، هذه هى سنه الله المطردة ، فليألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل إن كانوا هم لا يعلمون . لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر، فتكون حياتهم الواقعية

مصداق شريعتهم . وسلوكهم العملى نموذجاً حياً لما يدعون إليه الناس . فالكلمة الحية الواقعية هى التى تؤثر وتهدى ، لأن الناس يرونها ممثلةً فى شخص ، مترجمة إلى حياة . ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون فى الأسواق، ولا يعاشرون النساء ، ولا تعتلج فى صدورهم عواطف البشر ، وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم ويقتدون . وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم، ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ، ولا يتجاوبون معه . ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول . لما بينه وبينهم من قطيعة فى الحس والشعور وأيما داعية لا يصدق فعله قوله . فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب . مهما تكن كلماته بارعة ، وعباراته بليغة . فالكلمة البسيطة التى يصاحبها الانفعال ، ويؤيدها العمل هى الكلمة المثمرة التى تحرك الآخرين إلى العمل .

﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .يعنى : فاسألوا يا أهل مكة العلماء " بالتوراة والانجيل " : هل كان الرسل الذين جاءوهم بشرا أم ملائكة ؟ . إن كنتم لا تعلمون ذلك.ويقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

[سورة الأنبياء١٠ :١١] والمعنى : إن معجزة القرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، ولقد كان به للعرب ومجدهم حين حملوا رسالته فَشَرّقوا بها وَغَرَّبوا . فلم يكن لهم قبله ذِكْر ، ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم طالما استمسكوا بهذا الكتاب ، وقادوا به للبشرية ، وانحط فيها ذكرهم ، وصاروا ذيلاً للقافلة يتخطفهم الناس كما هو حالنا فى هذا العصر الأنكد . وكانوا بكتابهم – وهو القرآن – يتخطف الناس من حولهم . وهم آمنون . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦٧] . أفلا يعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد – عليه الصلاة والسلام – ؟ .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى المعنى ذاته وهو الحث على التفقه فى الدين فيقول – عز وجل – : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الفرقان٧٢ :٧٣] . والمعنى : والذين إذا ذكروا بها أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية ، وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ، ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم ، وجهلهم وضلالهم ، فكأنهم صم لا يسمعون ، وَعُمى لا يبصرون .

ويقول – سبحانه وتعالى – أيضاً مؤكداً هذا المعنى وهو الدعوة إلى التفقه فى الدين : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ [سورة محمد:١٤] . والمعنى : أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له رَباً يجازيه على طاعته إياه بالجنة ، وأراه إياه جميلاً ، فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، وإما من اتبع هواه ، وجمحت به شهواته ، فطفقت يعدوفى المعاصى، ويخب فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أو زاجر. هل يستوى الفريقان؟. من كان ثابتا على حجة بينة من عند ربه . وهى كتابه الذى أنزل على رسوله – صلى الله عليه وسلم – وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس ، ومن زَيَّــنَ له الشيطان سيء أعماله من الشرك وسائر المعاصى، كإخراجك من قريتك ، وإتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها

تُعَاضـــد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه فى الدفاع عما يُدْل به ؟ . كلاهما لا يستويان .

ومثل الآية قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة الرعد:١٩]. وقوله – سبحانه وتعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [سورة الحشر:٢٠]. ويقول " صاحب اللطائف " : قوله جلّ ذكره : ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [سورة محمد:١٤] .« البيِّنة »: الضياء والحُجَّة، والاستبصار بواضح الحجة : فالعلماءُ في ضياء برهانهم ، والعارفون في ضياءِ بيانهم ؛ فالبيان للعارفين والرهبان لأرباب العلم فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يُبْصِرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون .

ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم يدعو إلى العلم والتعلم ، والتفقه فى الدين ، فبالعلم والفقه يبنى الناس دولتهم ، وترتقى أمتهم ، وتتحضر دولهم . يقول الشاعر :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم   لم يبن ملك على جهل واقلال

ولذلك كانت أول سورة تنزل من القرآن الكريم تدعوإلى العلم والتعلم ، فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [سورة العلق١ :٥]. ويقول الحق – سبحانه وتعالى – :" هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ".

وقال – عليه الصلاة والسلام – : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " . فمن الأخلاق القرآنية الكريمة وإرشاداته وهدي دعوته إلى التفقه فى الدين وتحصيل العلوم والمعارف.(1)

1- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٤١
- ذاته جـ ٩ ، ص ٥٦
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٠١
- تفسير الفخر الرازى جـ ١٦ ، ص ٢٢٥
- روح المعانى للالوسى جـ ١١ ، ص ٤٨
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٢ ، ص ٧٢
- ذاته جـ ٣ ، ص ٤٠٧
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٤ ، ص ٢١٧٢ و ما بعدها ، ص ٢٣٦٨ ، ص ٢٣٧٠
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٢٥٦

الإعراض عن اللَّغو

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الإعراض عن اللغو" والسفسطة ، وسفاسف الأمور ، فإن اللغو وكثرته يُوُقِع الإنسان فى المحاذير ، وتجعل المسلم يرتكب من الأخطاء ، ويقترف من الذنوب ، ويجترح من السيئات ما تنوء عن حمله الجبال الشوامخ .يقول الحق –سبحانه وتعالى-فى هذا المعنى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٣].
والمعنى : الذين هم عن الباطل معرضون وهوينتظم الشرك والمعاصي ، وما لا فائدة فيه من الأقوال ، والأفعال ، كما قال الله – سبحانه وتعالى – : " وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا " . قال قتادة – رضي الله عنه – : " أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك " .

وقوله – سبحانه وتعالى – أيضا : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الفرقان:٧٢] . والمعنى : والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم وينكرون أنفسهم عن سماع اللَّغو، وما لا خير فيه ، كاللغوفى القرآن ، وشتم الرسول– عليه الصلاة والسلام – والخوض فيما لا ينبغي ، وكان " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه . يعنى : " يطليه بمادة سوداء " ، ويحلق رأسه ، ويطوف به فى الأسواق .

ومثل هذه الآية فى المعنى قوله–سبحانه وتعالى-﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [سورة القصص:٥٥] ومثل الآيات السابقة التى تعد من الأخلاق القرآنية الكريمة قوله – سبحانه وتعالى-:﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

[سورة الزُّخرُف:٨٣]. والمعنى : أي اترك كفار مكة فى جهلهم وضلالهم ، يخوضون فى باطلهم ، ويلعبوا بدنياهم ، حتى ذلك اليوم الرهيب الذى وعدوه ، وهو يوم القيامة ، فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم .

وهذا توجيه إلهي يسجله القرآن الكريم ليكون إذكاراً وعبرة وعظة لمن كان له قلب لو ألقى السمع وهوشهيد ، وهذه الأخلاق القرآنية التى يرشدنا إليها الله – سبحانه وتعالى – أخلاق نافعة للمسلم فى دنياه وفى أُخراه ، أما فى الدنيا فيكون بحب الناس له والتفافهم حوله ، وفى الآخرة بالفوز بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، هذه هى السعادة الحقيقية والتى يرشدنا إليها وإلى التمسك بها وبالفضائل التى وردت في القرآن الكريم ، وهو حبل الله المتين الذى من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن استمسك به هدى إلى صراط مستقيم .

ويقول " صاحب اللطائف " : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ (٨٣) ﴾ [سورة الزُّخرُف:٨٣] .إذ ليس يفوت أمرُهم ، وهم لا محالة سيلقون صغرهم . وفي هذا دليلٌ على أنه لا ينبغي للعبد أن يغتر بطول السلامة فإنَّ العواقبَ غيرُ مأمونة . وقال تعالى لرسوله إذا أصروا على باطلهم من الشرك والعذاب على الله والافتراء عليه فذرهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا فى دنياهم حتى يلاقوا الذى يوعدون وهويوم عذابهم المعد لهم وذلك يوم القيامة .(1)

1 تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢٣٨
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١٦٦
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٤٠ - ٤١
- تفسير الكشاف للزمخشرى
- التفسير الكبير للفخر الرازى
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ٣ ، ص ٣٧٧

وصل ما أمر الله به أن يوصل

إن من الأخلاق القرآنية " وصل ما أمر اللّه به أن يوصل " ففى هذا الخلق صلة الأرحام ، والأقارب ، والخِلاّن . وذلك يورث الألفة والمحبة ، ويغرس فى نفوس المسلمين بذور الوحدة التى تربط بين المسلمين قاطبةً حتى يصبحوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وفى وصل ما أمر اللّه به أن يوصل مرضاة للّه ورسوله – صلى اللّه عليه وسلم – فى ذلك يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢١]. والمعنى : يقول ابن عباس – رضي اللّه عنهما – : " يريد الإيمان بجميع الكتب والرسل يعني يصل بينهم بالإيمان وألا يفرق بين أحد منهم والأكثرون على أن المراد به صلة الرحم . وعن عبد الرحمن بن عوف قال : سمعت رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – يقول : « قال اللّه – تبارك وتعالى – : أنا اللّه . وأنا الرحمن . خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته أو قال : بترته » [1]. وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله اللّه ومن قطعني قطعه اللّه » .

{ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ } يعني أنهم مع وفائهم بعهد اللّه وميثاقه والقيام بما أمر اللّه به من صلة الرحم يخشون ربهم ، والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه { وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ }.

---

1 أخرجه أبو داود والترمذي

ويقول المراغى فى تفسيره : " والذين يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصلها، فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاويج ، وذوى الخِلْة منهم بإيصال الخير إليهم ، ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " مَنْ سرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأ له في أجله فليصل رَحِمَه " . وإنساء الأجل تأخيره ، وذلك يكون بالبركة فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله ، وحقوق عباده ، مثل الإيمان بالكتب والرسل ، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان ، مثل : الإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب ، والخدم ، والجيران والرفقة فى السفر إلى غير ذلك من الحقوق الواجبة على المسلم. وعن أبي الدرداء- رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم – فقال : " إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم في قبره ، فذلك زيادة العمر" .

هذه أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . أخرج " الخطيب " و"ابن عساكر" عن ابن عباس – رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن البرّ والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة " ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الرعد:٢١].

" وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ " . والخشية : هى خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته فى قوله – سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ

كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [سورة فاطر:٢٨].
والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابةً وإجلال . ويخافون سوء الحساب . يعنى : ويحذرون مناقشته إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم لرهبتهم جادون فى طاعته ، محافظون على اتباع أوامره ، وترك نواهيه ، وفى المعنى ذاته يتحدث القرآن الكريم عن هذا الخلق السامى الرفيع بقوله – سبحانه وتعالى- : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ [سورة البلد:١٧].
يقول "الماوردى " فى تفسيره : المراد بالصبر : الصبر على طاعة الله . قاله " الحسن". قال هشام بن حسان " هوالصبر على ما افترض الله عليه . وقال سُفْيان : الصبر على ما أصابهم . ويحتمل أن يكون المراد بالصبر فى الآية الصبر على الدنيا وعن شهواتها . { وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ} أي بالتراحم فيما بينهم ، فرحموا الناس كلهم ويحتمل أن يكون المعنى : وتواصوا بالآخرة لأنها دار الرحمة ، فيتواصوا بترك الدنيا وطلب الآخرة .

وقيل إن المعنى : هو: ثم كان من الذين عملوا هذه القربات لوجه الله تعالى وهى المذكورة فى الآيات السابقة : ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة البلد١٣ :١٦]. وكان مع فعل هذه القربات مؤمنا صادق الإيمان .

ويقول المفسرون : وفى الآية إشارة إلى أن هذا القُرب والطاعات لا تنفع إلاَّ مع الإيمان ، ومع ذلك يوصى بعضهم بعضاً بالصبر على الإيمان ، وطاعة الرحمن، وبالرحمة والشفقة علة الضعفاء والمساكين . ويقول المراغى فى تفسيره : " ثم كان اقتحامه العقبة من صادق الإيمان الذين يصبرون على الأذى ، وما يصيبهم من المكاره فى سبيل الدفاع عن الحق ويرحمون عباد الله ، ويواسونهم ، ويساعدونهم

حين البأساء ، وانما اشترط الإيمان مع فعل هذه المبار ، لأن من فعلها دون أن يكون مؤمناً لم ينتفع بها ، ولم يكن له ثواب عليها . حيث إنه لا ينفع ولا يفيد مع الكفر بر ولا عمل صالح فالأساس هوالإيمان بالله والتصديق برسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبما أنزل عليه وهو القرآن الكريم ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل وبالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوة ومره ، وباليوم الآخر. عند ذاك تنفع أعمال البر والخير. (1)

1 - مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن جـ ٢ ، ص ٦٦٥ ، ٥٦٦ ، ط . دار المسيرة - بيروت - لبنان .
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٩٣ ، ٩٤
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٥٦٣
- تفسير النكت و العيون للماوردى جـ ٦ ، ص ٢٧٩ و ما بعدها .
- تفسير المراغى جـ ١٠ ، ص ١٦٣ بتصرف .

عدم السؤال عما لا يعنيك

ومن الأخلاق القرآنية " عدم السؤال عما لا يُعنيك " ولا يَخصك ، وهومن أخلاق القرآن والسنة ، يقول – صلى الله عليه وسلم – : " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " . والمعنى : دع ما يوقعك فى الشك إلى ما لا يوقعك فى الشك ، فهوخُلُق قرآنى ، ونهج محمدي ، حتى يكون المسلم غير متطفل على الآخرين فى شيء ، فيجب على المسلم ألا يتدخل فى أمر من الأمور التى لا تُعنيه ولا تهمه ، ففى ذلك احترام لنفسه واحترام للآخرين . حتى لا يتعرض لأحد بإساءة أوحرج للشعور أو خدش للحياء . فالإسلام شديد الحرص على الحفاظ على مشاعر المسلم . بل على مشاعر الناس جميعاً ، وهذا خُلُق راق ومدنية وحضارة ما بعدها حضارة ، وهى حضارة القرآن الكريم والسنة .

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[سورة المائدة١٠١ :١٠٢] . والمعنى : روى عن أنس بن مالك قال: خطب النبي صلى الله عليه وسلم خُطبة ما سمعت مثلها قط، قال "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا" قال: فغطّى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين. فقال رجل: من أبي؟ قال: "فلان"، فنزلت هذه الآية: " لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ " .

فعن قتادة في قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ } ، قال: فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه : أن رسول الله – صلى

الله عليه وسلم - سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: " لا تسألوا اليوم عن شيء إلاَّ بينته لكم ". فأشفق أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكون بين يدي أمر قد حَضَر، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالا إلا وجدت كُلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان يُلاحي فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله ، من أبي؟ قال : " أبوك حذافة ". قال : ثم قام "عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - أو قال : فأنشأ عمر- فقال: رضينا بالله رباً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولا عائذاً بالله – أو قال : أعوذ بالله- من شر الفتن قال : وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لم أر في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط " .

وإن صبرتم حين ينزل القرآن بحكم من فرض ، أو نهى ، أو حكم ، وليس فى ظاهره شرح ما تحتاجون إليه ، ومشت حاجتكم اليه . فإذا سألتم عنه فحينئذ يبدى لكم ، ومثال هذا : أن الله – عز وجل - لما بين عدة المطلقة ، والمتوفى عنها زوجها ، والحامل ، ولم يكن فى عدد هؤلاء دليل على عدة التى ليست " ذات قرء " ولا " حامل " . فسألوا عنها ، فأنزل الله – عز وجل - جوابهم فى قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الطلاق:٤].

" عفا الله عنها " . يعنى : عن مسألتكم عن الأشياء التى سألتم عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم - التى كره الله لكم السؤال عنها فلم يؤاخذكم بها ، ولم يعاقبكم عليها.والله غفور لمن تاب منكم ، حليم فلا معجل بعقوبتكم . ﴿ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة المائدة:١٠٢].يقول المفسرون:

"يعنى: قوم " صالح " - عليه السلام- سألوا الناقة ثم عقروها فأصبحوا بها كافرين. و" قوم موسى"-عليه السلام - . حيث إنهم قالوا : " أرنا الله جهرة " . فكان هذا السؤال وبالا عليهم . و" قوم عيسى"-عليه السلام- : فقد سألوا " نزول المائدة " عليهم، ثم كذبوا بها . كأنه تعالى يقول : " إن أولئك سألوا فلما أعطوا سؤلهم كفروا به ، فلا تسألوا أنتم شيئا فلعلكم إن أعطيتم سؤلكم ساءكم ذلك .

ويروى عن عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ كَتبَ اللَّهُ عَلَيكُمُ الحَجَّ فَحِجُّوا » فقام محصن الأسدي وقال : أفي كل عام يا رسول الله؟ . فقال : « أَمَا إِنِّي لَوقُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَووَجَبَتْ ثُمَّ تَرَكْتُم لَضَلَلْتُمْ ، اسْكَتُوا عَنِّي مَا سَكَتُّ عَنْكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْـرَةِ سُـؤَالِهِمْ واخْتِلاَفِهِم عَلَى أَنْبِيائِهِمْ » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) ﴾ [سورة المائدة:١٠١] . وقيل إنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام . وهذا قول ابن عباس – رضي الله عنهما – . وقد جعل الله نزول القرآن عند السؤال موجباً بتعجل الجواب .

" عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ " . أي عن المسألة ، وقيل : إنهم " قريش " حيث انهم سألوا النبي– صلى الله عليه وسلم – أن يحول لهم جبل الصفا ذهباً . وقيل أنهم القوم الذين سألوا النبي – عليه الصلاة والسلام – : من أَبَى ؟ ونحوه ، فلما أخبرهم به أنكروه ، وكفروا به . وهذا هورأى المتأخرين .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾ [سورة هود٤٦ :٤٧] . قال نوح- عليه السلام – معتذراً إلى ربه عما صدر عنه : " رب انى أستجيرك أن أسألك أمرا لا يليق بى سؤاله ، وألاَّ تغفر لى ذَلتِى ، وتتداركنى برحمتك ، أكن ممن خسر آخرته وسعادته .

ويقول المراغى فى تفسيره فى قوله تعالى : قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ " . يعنى : يا نوح أنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم وقد بين – سبحانه وتعالى – سبب ذلك بأنه ذوعمل غير صالح أي فهوينكب الصلاح ، ويلزم الفساد ، فلا تسألنى فى شيء ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالاً لأنه تضمن ذِكْر الوعد بنجاة أهله ، وما رتب عليه من طلب نجاة ولده .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء ، ولا يطلب ما هو محرم شرعاً، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب ، والتوفيق فيها والهداية إلى العلم بالمجهول من السنة والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان . إنى أنهاك إن تكون من زمرة من يجهلون . فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه إجابة لشهواتهم ، وأهوائهم فى أنفسهم ، أو أهليهم ، أومُحِبيهم وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن تسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى عنه من أُولى العزم من رسله أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم ما لم يُعط مثله لرسله . ثم يذكر طلب سيدنا " نوح "- عليه السلام - المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال فقال حاكيا عنه : "قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ " . أي قال نوح - عليه السلام –

رب إنى ألتجئ إليك ، وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئاً لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سولته لى الرحمة الابوية ، وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شيء . أكن من الخاسرين فيما حاولته من الريح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك ، وأنت أعلم بهم منى .

وفى هذه الآية عبر وعظات كُثرّ وهى : -

أولاً : إن ما سأله نوح - عليه السلام - لإبنه لم يكن معصيةً لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأً فى اجتهاد بنية صالحة ، وَعُدّ هذا ذنباً لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللاَّئق بمنزلتهٍ من ربه ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حينا بعد حين .

ثانياً : إنه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولوكان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم - عليه السلام - سواء ، ولكان سلائل أبناء "نوح "- عليه السلام - المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

ثالثاً : إنه تعالى يُجْزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحابى أحداً منهم لأجل الآباء والأجداد وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين.

رابعا : إنه من يغتربِنَسبه ، ولا بعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين فهو جاهل بكتاب ربه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الإسراء:٣٦]. والمعنى : ولا تتبع ما لا تعلم ولا يتبعك بل تثبت من كل خبر. يقول قتادة – رضي اللّٰه عنه – : " لا تقل : رأيت ، ولم تر، وسمعت ، ولم تسمع ، وعلمت، ولم تعلم ؛ فإن اللّٰه سائلك عن ذلك كله. لأن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه ، عما أكتسبته جوارحه .

ويقول اللّٰه – عز وجل – فى هذا الخلق : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [سورة الكهف٦٩ :٧٠]. والمعنى : قد شرط الخضر على سيدنا : موسى "–عليه السلام – قبل بدء الرحلة أن يسأله من تصرفاته ولا يحاول استيضاح شيء ولا الاستفسار عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل " موسى "– عليه السلام – ما اشترطه " الخضر " عليه رعايةً لأدبه المتعلم مع العالم ، والمعنى : "لا تسألنى عن شيء مما أفعله حتى أُبَيّنه لك بنفسى " حتى أحدث لك منه ذكرا ". حتى أوضحه وأبينه وأفسره لك دون أن تسألنى عنه وهذا هوالشرط الذى اشترط عليه قبل بدء رحلتهما معاً .

يقول صاحب " اللَّطائف " فى معنى هذه الآية : " ليس للمريد أن يقول لشيخه : لِمَ ؟ ولا للمتعلم أن يقول لأستاذه كيف، ولا للعامي أن يقول للمفتي فيما يفتي ويحكم . وقال ابن البنا في تفسيره : يُؤخذ من هذه القصة : ترك الاعتراض على أولياء اللّٰه إذا ظهر منهم شيء مخالف للظاهر؛ لأنهم فيه على دليل غير ظاهر لغيرهم ، اللَّهم إلاَّ أن يدعوك إلى اتباعه ، فلا تتبعه إلاَّ عن دليل ، ويُسلم له في حاله ، ولا تعترض عليه ، ولا يمنعك ذلك من طلب العلم والتعلم منه ، وإن كنت لا تعمل

بعمله؛ لأنه لا يجب عليك تقليده إلاَّ عن دليل ، فلا تعمل مثل عمله ، وأنت ترى أنه مخالف لك في ظنك ، ولا علم لك بحقيقة باطن الأمر ، فلا تقفُ ما ليس لك به علم .

وهذا منتهى الأدب والخلق فهذه بلا ريب توجيهات راشدة ، وسديدة نافعة ، وتعد بحق من الحكم الغوالى ، والكلم الغوالى . فلو أن كل مسلم التزم بها ، وجعل هذه المعانى وتلك الأخلاق نصب عينيه لربح فى الدنيا ، ويعد فى الآخرة . فهذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم الذى يوجه المسلم إلى الأدب والتأدب مع اللّه ورسوله ، ومعلميه الخير فى كل زمان ، وعصر وأوان . (١)

1 لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٢ ، ص ٤٠٩
- مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن ، جـ ١ ، ص ٣٣٣
- فسير النكت و العيون للماوردى جـ ٢ ، ص ٧١ – ٧٢
- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٣ ، ص ١٠٧
- ذاته جـ ٢ ، ص ١٥٩ بتصرف
- ذاته جـ ص ١٩٩ بتصرف
- تفسير المراغى جـ ٤ ، ص ٤٠ – ٤٢

التطوع

من الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم " التطوع " . وهو قيام الليل وغيره من العبادات التطوعية التى تقرب العبد من ربه ، وتجعله دائماً يخافه ويخشاه ، وَيَحذر الآخرة ، ويرجو رحمة ربه ، وتنأى جنوبهم عن المضاجع داعين الله ربهم آناء اللَّيل ، وأطراف النهار لعله يرضى عنهم ، ويعمهم برحمته ، ويؤمنهم من عذابه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم . وفى هذه المعانى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء٧٨ :٧٩]. والمعنى : قم بعد نومك حيث إن التهجد لا يكون إلاَّ بعد القيام من النوم ، والمراد من الآية " قيام اللَّيل للصلاة " . وكانت صلاة اللَّيل فريضة على النبي – صلى الله عليه وسلم – وعلى الأمة فى الابتداء وأول الأمر لقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة المزَّمل١ :٦]. ثم نزل "التخفيف " فصار الوجوب منسوخاً فى حق الأمة بالصلوات الخمس ، وبقى قيام اللَّيل على الاستحباب ، و" نافلةً لك " يعنى : زيادةً لك . يريد فريضة زائدة على سائر الفرائض التى فرضها الله عليك .

روى عن السيدة الفضلى " عائشة بنت ابى بكر "– رضي الله عنهما – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ثلاثة هن علي فريضة ، وهن سنة لكم ، الوتر، والسواك ، وقيام الليل " . وقيل الوجوب صار منسوخا فى حق النبي أيضا – صلى الله عليه وسلم – كما هو فى حق الأمة فصار قيام الليل نافلة . لأن الله –

سبحانه وتعالى - قال : " نافلة لك " . ولم يقل : " نافلة عليك " . عسى ربك أن يبعثك مقاماً محموداً " . وقد أجمع المفسرون على أن " عسى " من الله واجب وذلك أن لفظة " عسى " تفيد الإطماع ومن أطمع إنساناً فى شيء ثم حرمه كان ذلك شاقاً عليه ، والله أكرم من أن يطمع أحداً ثم لا يعطيه ما أطمعه فيه . والمقام المحمود هو" مقام الشفاعة " لأنه يحمده فيه الأولون والآخرون .

ويقول " الماوردى " فى تفسيره : " أما الهجود فمن أسماء الأضداد ، وينطلق على النوم وعلى السهر ، وشاهد انطلاقه على السهر قول الشاعر :

ألا زارت وأهْلُ مِنىً هُجُود ... ولَيْتَ خَيَالَهَا بِمِنىً يعُود

وشاهد انطلاقه على النوم قول الشاعر :

أَلا طَرَقَتْنَا والرِّفَاقُ هُجُود ... فَبَاتَتْ بِعُلاَّت النّوالِ تجود

أما التهجد فهو السهر ، وفيه وجهان :

أحدهما : السهر بالتيقظ لما ينفي النوم ، سواءً كان قبل النوم أو بعده .

الثاني : أنه السهر بعد النوم ، قاله الأسود بن علقمة .

وفي الكلام ضمير محذوف وتقديره : فتهجد بالقرآن وقيام الليل نافلةً أي فضلاً وزيادةً على الفرض .

وفي تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم بأنها نافلة له ثلاثة أوجه :

أحدها : تخصيصاً له بالترغيب فيها والسبق إلى حيازة فضلها ، اختصاصها بكرامته ، قاله عَليّ بن عيسى .

الثاني : لأنها فضيلة له ، ولغيره كفارةً ، قاله مجاهد .

الثالث : لأنها عليه مكتوبةً ولغيره مستحبةً ، قاله ابن عباس .

﴿ ..عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [سورة الإسراء:٧٩]

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المقام المحمود الشفاعة للناس يوم القيامة ، قاله حذيفة بن اليمان .

الثاني : أنه إجلاسه على عرشه يوم القيامة ، قاله مجاهد .

الثالث : أن إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

ويحتمل قولاً رابعاً : أن يكون المقام المحمود شهادته على أمته بما أجابوه من تصديق أوتكذيب ، كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة النساء:٤١].

ويقول صاحب اللّطائف : الليل لأحدِ أقوام : لطالبي النجاة وهم العاصون مَنْ جَنَح منهم إلى التوبة ، أو لأصحاب الدرجات وهم الذين يَجِدُّون في الطاعات ، ويسارعون في الخيرات ، أولأصحاب المناجاة مع المحبوب عندما يكون الناس فيما هم فيه من الغفلة والغيبة . ويقال اللَّيل لأحد رجلين : للمطيع والعاصي: هذا في احتيال أعماله ، وهذا في اعتذاره عن قبيح أفعاله .

والمقام المحمود هوالمخاطبة في حال الشهود ، ويقال الشهود . ويقال هوالشفاعة لأهل الكبائر . ويقال هو انفراده يوم القيامة بما خصَّ به - صلى الله عليه وسلم - بما لا يشاركه فيه أحد .

وفى المعنى:ذاته يقول الحق -سبحانه وتعالى-:﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [سورة الفرقان٦٣ :٦٤] . والمعنى : يبيتون سجدا وقياما فى طاعته وعبادته كما قال الله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [سورة السجدة:١٦] . وقوله : أمن هوقانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجورحمة ربه"وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (٦٥) [سورة الفرقان٦٥ :٦٦]. يعنى : عذاباً ملازماً دائماً . كما قال الشاعر:

إن يعذب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالي

ولهذا قال الحسن– رضي الله عنه – في قوله { إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام وإنما الغرام الملازم ما دامت السموات والأرض وكذا قال سليمان التيمي وقال محمد بن كعب { إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} يعني ما نعموا في الدنيا إن الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار لقوله: { إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } أي بئس المنزل منظراً وبئس المقيل مقاماً .

ويقول صاحب اللَّطائف : " يبيتون لربهم ساجدين ، ويصبحون واجدين؛ فَوَجْدُ صباحهم ثمراتُ سجودِ أرواحهم ، كذا في الخبر : « مَنْ كَثُـرَتْ صلاتُه بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار » أي عَظُم ماءُ وجهه عند الله ، وأحسنُ الأشياء ظاهرٌ بالسجود مُحَسَّنٌ وباطنٌ بالوجود مُزَيَّنٌ . ويقال متصفين بالسجود قياماً بآداب الوجود .

يقول الله تعالى:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ (٩) ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] . والمعنى : أم من هومطيع عابد فى ساعات الليل يتعبد ربه فى صلاته ساجدا أو قائماً كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ .

يقول القرطبى : " بين – سبحانه وتعالى – أن المؤمن ليس كالكافر فالمؤمن يخشى ربه ، ويخافه ويتقيه راجياً الجنة فى الدار الآخرة فهل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر ؟ . مما لا ريب فيه أنهم لا يستوون عند الله –

سبحانه وتعالى - . ثم يضرب الله مثلا فيقول : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون يعنى : هل يتساوى العالم والجاهل ؟ . فكما أنه لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصى ؟ . إنما يعتبر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .

يقول الإمام الفخر الرازى : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العلم وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فكونه قانتاً ساجداً قائماً ، وأما العلم فقوله تعالى: { هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هوالنهاية . أنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل إنما يحصل إذا كان الإنسان مواظباً عليه ، فإن القنوت عبارة عن كون الرجل قائماً بما يجب عليه من الطاعات ، وذلك يدل على أن العلم إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان ، وقوله : {سَاجِدًا وَقَآئِمًا } إشارة إلى أصناف الأعمال وقوله : { يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ } إشارة إلى أن الإنسان عند المواظبة ينكشف له في الأول مقام القهر وهو قوله: {يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ } ثم بعده مقام الرحمة وهوقوله : { وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ } ثم يحصل أنواع المكاشفات وهوالمراد بقوله تعالى : { هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } وفى الكلام حذف ، وتقديره " أمن هو قانت كغيره ؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر، ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم .

ويقول صاحب اللَّطائف : " القنوتُ هو القيامُ ، وقيل طول القيام . والمراد هو الذي يقوم بحقوق الطاعةِ أوقاتَ اللَّيل والنهار؛ أي في جيمع الأوقات . والهمزة للاستفهام أي أمن هو قانت كمن ليس بقانت؟ أمن هو قانت كالكافر الذي جرى ذِكْرُه؟ أي ليس كذلك . ويقال القنوتَ القيامُ بآداب الخدمة ظاهراً وباطناً من غير

فتور ولا تقصير.« يَحْذَرُ » العذابَ الموعودَ في الآخرة ، « ويرجو» الثوابَ الموعودَ . وأراد بالحَذرِ الخوف .{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾} [سورة الزُّمَـر:٩]. أي هل يستويان؟ هذا في أعلى الفضائل وهذا في سوء الرذائل! { الَّذِينَ يَعْلَمُونَ } .

وقد روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " كل قنوت في القرآن فهوطاعة لله -عز وجل- ". وروي عن جابر عن النبي- صلى الله عليه وسلم - أنه سئل أي الصلاة أفضل ؟

فقال: " طول القنوت " وتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام.

روى عبد الله عن نافع عن ابن عمر سئل عن القنوت فقال: ما أعرف القنوت إلاَّ طول القيام، وقراءة القرآن. وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغض البصر. وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضوا أبصارهم، وخضعوا ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا ولم يذكروا شيئاً من أمر الدنيا إلا ناسين. قال النحاس: أصل هذا أن القنوت الطاعة، فكل ما قيل فيه فهو طاعة لله عز وجل، فهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة وما هو أكثر منها كما قال نافع: قال لي ابن عمر قم فَصَلِ فقمت أصلي وكان عَلَيَّ ثوب خلق، فدعاني فقال لي: أرأيت لو وجهتك في حاجة أكنت تمضي هكذا ؟ فقلت: كنت أتزين قال: فالله أحق أن تتزين له.

ويقول ابن عباس – رضي الله عنه – إن هذه الآية نزلت فى سيدنا " أبى بكر الصديق "– رضي الله عنه – . ويقول عبد الله ابن عمر– رضي الله عنهما – إنها نزلت فى سيدنا " عثمان بن عفان " – رضي الله عنه – . ويقول مقاتل– رضي الله عنه – : انها نزلت فى سيدنا " عمار بن ياسر " – رضي الله عنه – . " ولا

يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون حيث ان هذا فى أعلى الفضائل ، وذاك فى سوء الرذائل أي ان الذين يعلمون من أهل الفضائل ، والذين لا يعلمون من أهل السوء والرذائل . والعلم فى وصف المخلوق على ضربين :

أحدهما : مجلوب مكتسب للعبد

ثانيهما : موهوب من قبل الله سبحانه .

ويقال مصنوع وموضوع . ويقال علمُ برهانٍ وعلمُ بيان؛ فالعلومُ الدينية كلُّهَا برهانية إلاَّ ما يحصل بشرط الإلهام .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [سورة الفتح:٢٩].

والمعنى : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هورسول الله حقاً ، وليس كما يقول المشركون ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، يعنى : إن أصحابه الأخيار غُلاَظ على الكفار ، متراحمون فيما بينهم . لقوله تعالى : "أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ".

يقول " أبوالسعود " فى تفسيره لهذه الآية : " وذلك أنَّهم يُظهرونَ لمن خالفَ دينَهُم الشدةَ والصَّلابةَ ولمن وافقَهُم في الدِّينِ الرحمةَ والرأفةَ . " . يقول المفسرون ، وذلك أن الله أمرهم بالغلظة عليهم . قال تعالى : " وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ " . وقد بلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تمشى أبدانهم ، وكان الواحد منهم إذا رأى أخاه فى الدين صافحة وعانقه . وتراهم مع ذلك كله ركعاً

سجداً ، وذلك من كثرة صلاتهم وعبادتهم ، رُهْبا باللَّيل أسود بالنهار . يطلبون بعبادتهم هذه رحمه الله ورضوانه .

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " وقوله سبحانه وتعالى : {تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا } [سورة الفتح:٢٩] وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهوأكبر من الأول كما قال جل وعلا : { وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ } وقوله جل جلاله : { سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ } قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن وقال مجاهد : يعني الخشوع والتواضع { سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ } قال : الخشوع قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وقال السدي : الصلاة تحسن وجوههم وقال بعض السلف : من كَثُرتْ صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار . عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كثرت صلاته باللَّيل حسن وجهه بالنهار " . وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً في القلب وضياءً في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس .

يقول الإمام " القرطبي " : لاحت فى وجوههم علامات التهجد ، وأمارات السهر ، قال ابن جريح : " هو الوقار والبهاء . ويقول مجاهد – رضي الله عنه – أيضا : هوالخشوع والتواضع . يقول " منصور " سألت مجاهد عن قوله تعالى "سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم " . أهو أثر يكون بين عينى الرجل ؟ قال لا، ربما يكون بين

عيني الرجل مثل ركبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع .

ذلك وصفهم فى التوراة : " الشدة على الكافرين ، والرحمة بالمؤمنين ، وكثرة الصلاة والسجود ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج فراخة ، وفروعه ، فقواه حتى صار غليظا ، فقام الزرع واستقام على أصوله ، وهذا الزرع يعجب الزراع ، وذلك لقوته ، وكثافته ، وحسن منظره ، ليغتاظ بهم الكفار .

يقول الضحاك : " هذا مثل فى غاية البيان ، فالزرع هو محمد – صلى اللّٰه عليه وسلم – والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثرهم ، وضعفاء فقعوا . يقول "القرطبي " : وهذا مثل ضربه اللّٰه تعالى لأصحاب النبي صلى اللّٰه عليه وسلم، يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى اللّٰه عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ نباته وأفراخه.

فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان. وقال قتادة: مثل أصحاب محمد صلى اللّٰه عليه وسلم في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن ا لمنكر.

هؤلاء وعدهم اللّٰه بالمغفرة التامة ، والأجر العظيم ، والرزق الكريم فى جنات النعيم . اللهُم ارزقنا محبتهم . ومحبة من يحبهم يا رب العالمين إلى يوم نلقاهم فيه فى الفردوس الأعلى بمحمد وحزبه . – صلى اللّٰه عليه وسلم – .

ويقول صاحب اللَّطائف : " هى فى القيامة يوم تَبْيَّض وجوه وأنهم يكونون غُرّاً محجلين . ويقال « معه » أبوبكر ، و﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ عمر؛ و﴿ رُحَمَآءُ

بَيْنَهُمْ } عثمان ، و{ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا } عليٌّ رضي الله عنهم . وقيل : الآيةُ عامةٌ في المؤمنين .

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن هذا الخلق فيقول–سبحانه وتعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الذاريات:١٨]. والمعنى : كانوا ينامون القليل من اللَّيل ، ويتهجدون فى معظمه . يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، عزوجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلَّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبوالعالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبى جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم . وقال الحسن البصري: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الذاريات:١٧] : كَابَدْوا قيام اللَّيل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السَحَر، حتى كان الاستغفار بِسَحَر. وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الذاريات:١٧]: كانوا لا ينامون إلا قليلا ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً، إذا قوم لا نبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قومًا خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا.

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ

نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [سورة المزّمل:١:٨].

والمعنى : يا أيها النبي المتزمل فى ثيابه ، المتهيئ للصلاة ، قم عليها اللّيل كله إلاَّ قليلا وهوالنصف أو انقص من النصف ، أو زد عَلي النصف إلى الثلثين فهو عليه السلام قد خير بين الثلث ، والنصف ، والثلثين . وقصارى القول أنه أمر أن يقوم نصف الليل ، أو يزيد عليه قليلا ، أو ينقص منه قليلا ولا حرج عليه فى واحد من الثلاثة ، وبعد أن أمره بقيام الليل أمره بترتيل القرآن فقال : ورتل القرآن ترتيلا . يعنى أقرأه على مهل وتؤدة ، وأناة ، وتبصر . فإن ذلك أعون على فهمه وتدبره . وكذلك كان – صلى الله عليه وسلم – يفعل ذلك قالت السيدة الفضلى "عائشة بنت أبى بكر" – رضي الله عنهما – : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها " . وجاء فى الحديث : " زينوا القرآن بأصواتكم " . ولقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود ، يعنى أبا موسى الاشعرى ، فقال " أبوموسى الاشعرى " لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبَّرْته لك تحبيرا. وعن ابن مسعود أنه قال: لا تنثروه نثر الرمل ولا تهدّوه هدّ الشعر،

وأخرج العسكرى فى كتابه " المواعظ " عن عَلِىّ – كرم الله وجهه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " سئل عن هذه الآية فقال : " بينه تبينا ولا تنثره نثر الدقل " . والدقل هوأردأ التمر. ولا تهذه . يعنى : " لا تسرع به " هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة. وعن عبد الله بن مغفل قال : " رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح فرجع فى قراءته [١] .

1- اخرجه الشيخان .

وعن جابر قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نقرأ القرآن وفينا العجمي والعربي فقال : إقرأوا بكل حسن وسيجيء أقوام يتعجلونه ولا يتأجلونه لا يجاوز تراقيهم [1] .

يقول صاحب فتح البيان : " المقصود من التنزيل إنما هو حضور القلب عند القراءة ، وليس مجرد إخراج الحروف من الحلقوم والحكمة فى التنزيل هوالتمكن من التأمل فى حقائق الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمته وجلاله ، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصل الرجاء والخوف ، ويستنير القلب بنور الله . فإن الإسراع فى القراءة تدل على عدم الوقوف على المعانى . وإنا سننزل عليك يا رسول الله القرآن وفيه الأمور الشاقة عليك وعلى أتباعك من أوامر ، ونواهٍ . فلا تُبَالى بهذه المشقة ، وامرن عليها لما بعدها . ويقول الحسن ابن الفضل : " ثقيلاً : يعنى لا يحمله الا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد ، ويقول " ابن زيد " : " هو والله ثقيل مبارك ، كما ثقل فى الدنيا يثقل فى الآخرة فى الميزان " . وقد يكون المراد إنه ثقيل فى الوحى ، فقد جاء فى الحديث : " عن عائشة أم المؤمنين أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتيني أحياناً في مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ؛ فيفصم عني وقد وعيت ما قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا ؛ فيكلمني ، وأعي ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن

1- اخرجه أبو داود.

جبينه ليتفصد عرقا " [1] . يعنى يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد – يعنى الحجام – .

ولأن قيام اللَّيل أشد مواطأة وموافقة بين القلب واللسان ، وأجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها ، وهو أفرغ للقلب من النهار، لأنه وقت انتشار الناس ، ولغط الأصوات ، والبحث عن أمورا المعاش ، ومن ثم قال : ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾ [سورة المزَّمل:٧]. والمعنى : إن لك فى النهار تتفرغ فيه للعبادة ، فعليك بالتهجد ، فإن مناجاة الله – عز وجل – يعوذها الفراغ والتخلى عن العمل ، وقم على ذكره ليلاً ونهاراً بالتسبيح والتهليل التحميد والصلاة وقراءة القرآن ، وانقطع إليه بالعبادة ، وجرد اليه نفسك ، واعرض عما سواه .

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧﴾ [سورة الشَّرح:٧]. أي فإذا فرغت من شئونك ، فانصب فى طاعته وعبادته ، لتكون فارغ القلب ، خاليا من الهواجس ، والوساوس الدنيوية . ثم بين الله – عز وجل – السبب فى الأمر بالذكر والتبتل فقال – سبحانه وتعالى – : ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [سورة المزَّمل:٩]. وفى مثل هذه المعانى ، وهى التطوع والتبتل والتحميد والتهليل يقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ۝٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ۝٢٦﴾ [سورة الإنسان:٢٤:٢٦]. والمعنى : وصل بعض الليل كصلاة المغرب والعشاء ، وتهجد له طائفة من اللَّيل ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [سورة الإسراء:٧٩]". وقوله– عز وجل–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ

1- رواة البخارى و مسلم .

تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ [سورة المزَّمل:١:٧].

ويقول صاحب اللَّطائف فى معنى هذه الآية : " الفرض فى الأول ثم النفل" حيث إن الصلاة جاءت فى الأول – بكرة واصيلا – صلاة الصبح ثم الظهر والعصر. و" من الليل " يعنى المغرب والعشاء ، ثم من بعد ذلك النفل " وسبحه ليلاً طويلاً " . لأنه تطوع ، وقيل أنه خاص بالنبى – صلى الله عليه وسلم - وقيل إنه عام لجميع المؤمنين . (١)

1- مختصر تفسير القرآن الكريم للخازن جـ ٣ ، ص ٧٥٨ و ما بعدها .
- النكت و العيون للماوردى جـ ٣ ، ص ٢٦٤ – ٢٦٦ .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٢ ، ص ٣٦٤ و ما بعدها ، ص ٣٢٥ ، جـ ٢ ، ص ٦٤٩ .
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٣٢٥ .
- تفسير القرطبى جـ ١٥ ، ص ٢٣٨ ، جـ ١٦ ، ص ٢٩٣ – ٢٩٥ .
- حاشية زادة على البيضاوى جـ ٣ ، ص ١٩٤ .
- التفسير الكبير جـ ٢٦ ، ص ٢٥٠.
- لطائف الاشارات جـ ٣ ، ص ١٧١ و ما بعدها ، ص ٤٣٢ و ما بعدها ص ٦٦٨ .
- تفسير أبو السعود جـ ٥ ، ص ٨٦ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٣٥٥.
- تفسير المراغى جـ ٩ ، ص ١٧٩ .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ١١١ – ١١٣ .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ١٧٥ .

تقديم المشيئة

من الأخلاق التى وجهنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة "تقديم المشيئة " فى كل شيء يقوم به المسلم . فواجب عليه أن يقدم المشيئة . أن كل شيء بإرادة الله – سبحانه وتعالى - وبيده مقاليد الأمور ، كما أن فى تقديم المشيئة ذكر لله ، وعبادة له ومرضاة ، حيث إن تقديم المشيئة يذكره دائماً بخالقه ، الذى بيده الأمر ، ومالك الملك – سبحانه وتعالى - ومن الآيات التى وردت فى القرآن الكريم تدعوإلى التخلق بهذا الخلق قول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الكهف:٢٣:٢٤]ولا تقولن لشيء عزمت عليه: إنى سأفعله غداً ، إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت : " إن شاء الله " .

يقول ابن كثير : " هذا إرشاد من الله لرسوله الله صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله، عزوجل، علام الغيوب، الذي يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لوكان كيف كان يكون، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن اللَّيلة على سبعين امرأة – وفي رواية تسعين امرأة. وفي رواية: مائة امرأة- تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله ، فقيل له – وفي رواية : فقال له الملك- قل: إن شاء الله . فلم يقل فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان" ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده، لوقال: " إن شاء الله " لم يحنث ، وكان دركا لحاجته "، وفي رواية : " ولقاتلوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون .

وقد تقدم في أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية في قول النبي صلى الله عليه وسلم، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : "غداً أجيبكم". فتأخر الوحي

خمسة عشر يومًا . وإذا نسيت أن تقول " إن شاء الله " . ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله ، لعل الله يوفقنى ويرشدنى إلى ما هوأصلح من أمر دينى ودنياى . " وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا " . يقول ابن كثير : "أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

ويقول صاحب اللَّطائف : " إذا كانت الحوادث صادرةً عن مشيئة الله فَمَنْ عَرَفَ الله لم يَعُدّ من نفسه ما علم أنه لا يتم إلا بالله .

ويقال مَنْ عَرَفَ الله سقط اختيارُه عند مشيئته ، واندرجت أحكامه في شهوده لحكم الله . ويقال المؤمن يعزم على اعتناق الطاعةُ في مستقبله بقلبه ، لكنه يتبرأ عن حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ بسِرِّه ، والشرعُ يستدعي منه نهوض قلبه في طاعته ، والحقُّ يقف سِرَّه عند شهود ما منه لمحبوبه تحت جريان قسمته . والمعنى : أنه قد يبدو فى الظاهر أن للعبد ارداة فى الامتثال للطاعة وفى إجراء أحكام الشريعة ، ولكن فى الحقيقة أن الحق – سبحانه وتعالى- يتولى تبرأته من حوله وارادته وتهيئة سره للتجرد عن كل غير وسوى ،

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الكهف:٣٩]. والمعنى : فهلا حين دخلت حديقتك ، وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : " هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن، ولا قدرة لنا على طاعته الا بتوفيقه ومعونته " . وهنا يقول المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنى أفقر منك ، وتعتز عَلَيَّ بكثرة مالك وأولادك ، فأننى مؤمن بأن هذا من صنع الله ، وتفضله وإحسانه ، والله – سبحانه وتعالى – قادر على أن يقلب مابى، وما بك من الفقر والغنى ، فيرزقنى جنةً خيراً من جنتك ، يعنى حديقة خير من حديقتك ، وذلك لإيمانى به ، فيرسل الله عليها آفة تجتاحها ، أوصواعق من السماء تدمرها ، فتصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا

شجر ، أو يغور ماؤها فى الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه ، فضلاً عن إعادته ورده .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " فى ظلاله : " ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّـٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الكهف:٣٧:٤١]

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة ، فلا تُبالي المال والنفر ، ولا تداري الغنى والبطر ، ولا تتلعثم في الحق ، ولا تجامل فيه الأصحاب . وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال . وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم وهويطمع في فضل الله . وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين .

ويقول المراغى فى تفسيره : " هلا إذا أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ، وحمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك ، وقلت : " الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله " . ليكون ذلك منك اعترافا بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لا قوة إلاَّ بالله ، إقراراً منك بأن ما قويت به على عمارتها ، وتدبير أمرها ، فانما هوبمعونة الله وتأييده . وبعد أن نصح الكافر بالإيمان ، وأبان له عظيم قدرة الله ، وكبير سلطانه ، اجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، ورد على قوله : " أنا أكثر منك مالاً وولدا فقال : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾ [سورة الكهف:٤٠:٤١].
والمعنى : إن تَرَنِ أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ويجعل ما بى بك ، ويرزقنى الغنى ، ويرزقنى لإيمانى جنةً خيراً من جنتك ، بأن يرسل عليها

مطراً والسماء بقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وفى معنى المشيئة يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة القلم:١٨]. والمعنى : أنهم حين حلفوا ليجدن ثمارها غدوة حتى لا يعلم بهم سائل ولا فقير، فيتوافر لهم ما كان يأخذه هؤلاء الفقراء ، ولم يستثنوا عما هموا به، فجازاهم الله بكفرهم لهذه النعم التى أنعم الله بها عليهم ، فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله وهم نيام،إذ أرسل عليها صاعقةً فاحترقت ، وصارت تشبه الليل البهيم فى السواد .

ويقول صاحب " صفوة التفاسير " : " وَلَا يَسْتَثْنُونَ " . أي : ولم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ، كأنهم واثقون من الامر. ويقول الله – سبحانه وتعالى - فى المعنى نفسه : ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة المدَّثر:٥٥:٥٦]. والمعنى : وما يتعضون به الا أن يشاء الله لهم الهدى فيتفكروا ويتعظوا ، وفيه تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم - ، وترويح عن قلبه الشريف ، مما كان يخامره من إعراضهم وتكذيبهم له ، وهو– سبحانه وتعالى - أهل لأن يتقى لشدة عقابه ، وأهل لأن يغفر الذنوب لكرمه ، وسعة رحمته .

يقول الألوسى : "حقيق بأن يتقي عذابه ويؤمن به ويطاع { وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ } حقيق بأن يغفر جل وعلا لمن آمن به وأطاعه . وعن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ هذه الآية " ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ " فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر، فأنا أهل أن أغفر له "[١] . وعن أبي هريرة وابن عمر وابن عباس عن الحسن قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : الله تعالى إني لأجدني استحي من عبدي يرفع يديه إليَّ ثم يردهما من غير مغفرة قالت الملائكة : إلهنا ليس لذلك بأهل . قال الله تعالى : لكني أهل التقوى وأهل المغفرة أشهدكم أني قد غفرت له ". وكأن الجملة لتحقيق الترهيب والترغيب اللَّذين أشعر بهما الكلام السابق كما لا يخفى على

1 - رواه أحمد و الترمذى .

المتذكر وعن بعضهم أنه لما سمع قوله تعالى : " هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ " . قال : اللَّهم اجعلني من أهل التقوى وأهل المغفرة .

ويقول المراغى : " وما يذكرون هذا القرآن ، ولا يتعظون بعظاته ، ويعملون بما فيه ، الا أن يشاء الله أن يذكره ، فلا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً ، إلاَّ أن يُعْطيه الله القدرة على فعله ، إذ لا يقع فى ملكه – سبحانه وتعالى – الا ما يشاء . كما قال – عز وجل -:" وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ " . ثم ذكر ما هو كالعلة لما سلف فقال – سبحانه وتعالى- :" هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ " . والمعنى : فالله هوالحقيق لأن يتقيه عباده ، ويخافوا عقابه ، فيؤمنوا به ويطيعوه ، وهوالقمين بأن يغفر لهم ما سلف من كفرهم إن هم آمنوا به وأطاعوا . . وعن أنس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ هذه الآية " هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ " فقال : قد قال ربكم أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً آخر، فأنا أهل أن أغفر له " (١) .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الإنسان:٢٩:٣٠]. والمعنى : وما تشاءون أمراً من الأمور إلاَّ بتقدير الله ومشيئته ، ولا يحصل شيء من الطاعة والاستقامة إلاَّ بإذنه – سبحانه وتعالى – وإرادته .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : يقول تعالى" { وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ } أي: لا يقدر أحد أن يَهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان (١) ولا يجر لنفسه نفعًا، { إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } أي: عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له، ويقيض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا قال تعالى: { إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا } .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – أيضا : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة التكوير:٢٧:٢٩].

---

1 - رواه أحمد و الترمذى .

والمعنى : وما تقدرون على شيء إلاَّ بتوفيق الله ولطفه ، فاطلبوا من الله التوفيق إلى أفضل طريق . ويقول المراغى فى تفسيره : " إن إرادتكم الخير لا تحصل لديكم إلاَّ بعد أن يخلقها الله فيكم بقدرته ، الموافقة لإراداته ، فهو الذى يُوُدِع فيكم إرادة فعل الخير فتنصرف هممكم إليه ، ولوشاء لسلبكم هذه الإرادة ، وجعلكم كالحيوانات التى لا إرادة لها . وفى قوله تعالى " رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ " . بيان لعلة هذا ، فإنه لما كان رب العالمين ، وهوالذى منحكم كل ما تتمتعون به من القوى كالإرادة وغيرها ، وهو صاحب السلطان عليكم كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، وخاضعة لسلطانه، فلو شاء أن يوجهها إلى غير ما وجهت له توجهت ، ولوشاء أن يمحوها محيت ، فله الأمر ، وله الحُكْم ، وهوعلى كل شيء قدير.

هذه أخلاق القرآن الكريم ، فيحب على المسلم أن يتخلق بها المسلم وأن يجعلها نصب عينيه ، وأن يتذكرها كُلَّ طرفة عين ، وهو تقديم المشيئة فى كل أمر من الأمور ، مع الاعتقاد الصارم بأن الله – سبحانه وتعالى - خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، وعالم بكل شيء ، فإن أفعاله كلها لا تخلو من حكمة ، فعلى المسلم الإيمان والتسليم .[1]

---

1 - صفوة التفاسير ، جـ ٢ ، ص ١٨١ .
- ذاته ص ١٩٢ .
- ذاته جـ ٣ ، ص ٤٢٧ .
- ذاته ص ٤٩٧ .
- زاد المسير جـ ٥ ، ص ١٢٦ .
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٧٩ .
- ذاته جـ ٤ ، ص ٤٥٨ .
- لطائف الاشارات جـ ٢ ، ص ٣٨٩ و ما بعدها .
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٤ ، ص ٢٢٧١ .
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ١٥١ .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ٣٦ ، ص ١٤٢ و ما بعدها .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ٦١ و ما بعدها .
- روح المعانى للالوسى جـ ٢٩ ، ص ١٣٥ .

الكلام الطيب

إن القرآن الكريم يوجهنا ويرشدنا إلى حسن الخلق ، ولا يكون ذلك إلاَّ بالكلمة الطيبة التى تشرح صدر المسلم ، وتبعث فيه الأمل وتمنحه الثقة ، وتجعل البِشْرَ يعلو وجهه ، ويفتح أساريره ، وتبهج نفسه ، كما أن الكلمة الطيبة تغرس بذور المحبة فى القلوب ، وتساعد على الأُلفة ، وتقوية الروابط ، وما يكون بين المسلمين من وشائج وأمشاج . كما أنها تقتلع الشرك ، والبغضاء ، والشنان والكراهية من القلوب ، وتحل بدلاً منها المحبة ، والمودة ، والأخوة الصادقة وبذلك يصبح نسيج المجتمع المسلم نسيجا قوياً متلاحماً ، ومتآخياً ، ومترابطاً ومتحداً . يقول – صلى الله عليه وسلم – : " الكلمة الطيبة صدقة " . ويقول الشاعر العربى :

لا خيل عندك تهديها ولا مال ... فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فإن لم يكن عندك مال ، ولا جاه ، تتصدق به على الناس فلتكن الكلمة الطيبة التى تسعد الناس ، فإن المال الذى تملكه وتتصدق منه ، أو تقديم الخدمات للناس حيث إن هذه الخدمات تعد تقريبا لكرب المكروبين ، ونصرة للمظلومين ، وعوناً للمعوزين ، والمحتاجين .

وفى هذه المعانى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٨٢:٨٣]. والمعنى : وقولوا للناس قولا حسنا ، وذلك يكون بخفض الجناح ، ولين الجانب،مع الكلام الطيب ، ويقول الخازن:" { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا } فيه وجهان :

أحدهما : أنه خطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلهذا عدل من الغيبة إلى الحضور ، والمعنى قولوا : حقاً وصدقاً في شأن محمد

صلى الله عليه وسلم فمن سألكم عنه فأصدقوه وبينوا صفته ولا تكتموها قاله ابن عباس .

الوجه الثاني إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موس عليه السلام ، وأخذ عليهم الميثاق وإنما عدل من الغيبة إلى الحضور على طريق الالتفات كقوله تعالى : { حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم } وقيل : فيه حذف تقديره وقلنا لهم : في الميثاق وقولوا : للناس حسناً ومعناه مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر وقيل هواللين في القول والعشرة وحسن الخلق لقوله تعالى: { وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ } ولما أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لهم المنزلة عنده بما التزموا به أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك بقوله تعالى : { ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ } أي أعرضتم عن العهد {إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ } يعني من الذين آمنوا كعبد الله بن سلام وأصحابه فإنهم وفوا بالعهد { وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ } أي كإعراض آبائكم .

ويقول ابن كثير فى معنى هذه الآية :"وقوله تعالى: { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا } أي: كلموهم طيبًا ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري قوله: { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا } فالحُسْن من القول : يأمُر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم ، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهوكل خُلُق حسن رضيه الله. وقال الإمام أحمد: عن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فَالْقَ أخاك بوجه منطلق "[1] .

ويقول الماوردى : " { وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا } فمن قرأ حَسَناً ، يعني قولاً صدقاً في بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالرفع ، أي قولوا لجميع الناس حسناً، يعني خالقوا الناس بخُلُقٍ حسن . وقال – صلى الله عليه وسلم – : " عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِى رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ »[2] .

---

1 اخرجه مسلم فى صحيحه و الترمذى و صححه
2 رواه الترمذى

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النساء:٩]. والمراد بالقول السديد هوالقول الصادق . وأيضا قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة المائدة:٨٤:٨٥]

وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٢٦:٢٧]. ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى نفس المعنى : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٥٣]. والمعنى : وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم . ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم " الكلام الأحسن للأقناع ، مع البعد عن الشتم ، والسب والأذى . وتظهر هذه الآية قوله – سبحانه وتعالى – : ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ . وقوله – سبحانه وتعالى- :" وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ " . وروى أن الآية نزلت فى سيدنا " عمر بن الخطاب " جبار الجاهلية وعملاق الإسلام – رضي الله عنه – . وذلك أن رجلا شتمه ، فسبه سيدنا " عمر بن الخطاب " – رضي الله عنه – وهم بقتله فكادت تثير فتنه فأنزل الله قوله – سبحانه وتعالى – : " وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا " . ثم نرى القرآن يعلل لذلك بقوله : " إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ " . فأمرهم بالقول الحسن لأن الشيطان يثير بينهم الفتن والقلاقل . يعنى : بين المسلمين والمشركين ويهيج الشر

بينهم ، فيقع الشر ، والمخاصمة . ولذلك أمرهم بالقول الطيب والكلام الحسن . "وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا " .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة الكهف:٨٨]. والمعنى : يقول القرطبي : "وأما من آمن" . أي تاب من الكفر: " وَعَمِلَ صَٰلِحًا " قال أحمد بن يحيى: أن في موضع نصب في " إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا " قال : ولورفعت كان صوابا بمعنى فإما هو، كما قال: فسيرا فإما حاجة تقضيانها وإما مقيل صالح وصديق فله جزاء الحسنى . " فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ " بالرفع على الابتداء أوبالاستقرار. و"الحسنى " في موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة ، أي له جزاء الحسنى عند الله تعالى في الآخرة وهي الجنة، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله: "حق اليقين " . " ولدار الآخرة " قاله الفراء. ويحتمل أن يريد ب " الحسنى " الأعمال الصالحة.

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الحج:٢٣:٢٤]. والمعنى : وأرشدوا إلى القول الطيب ، وهو قولهم حين دخول الجنة : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء " . كما أنهم أرشدوا إلى الطريق الحميد الذى يجعل أقوالهم ، وأفعالهم مرضية عند ربهم محمودة لدى معاشريهم ، وإخوانهم . لما فيها يجمل فى المعاشرة والاجتماع ومثلها فى المعنى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة طه:٤٣:٤٤] يقول صاحب اللطائف فى معنى هذه الآية : " إنما أمرهما بالملاينة

معه في الخطاب لأنه كان أول مَنْ دَعَوْه إلى الدِّين ، وفي حال الدعوة يجب اللِّين؛ فإنه وقت المُهلةِ ، فلا بدَّ من الإمهال ريثما ينظر؛ قال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة النحل:١٢٥]: وهوالإمهال حتى ينظروا ويستدلوا ، وكذلك قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة سبأ:٤٦] . ثم إذا ظهر من الخَصمِ التمرُّدُ والإباء فحينئذٍ يُقابَلُ بالغلظة والحتف . ويقال علَّمهما خطابَ الأكابرِ ذوي الحشمة؛ ففرعونُ - وإن كان كافراً - إلا أنه كان سلطانَ وقتهِ ، والمتسلِّطَ على عبادِ الله . ويقال إذا كان الأمرُ في مخاطبة الأعداء بالرِّفق والملاينة .. . فكيف مع المؤمن في السؤال؟

ويقال في هذا إشارة إلى سهولة سؤال المَلَكَين في القبر للمؤمن .

ويقال إذا كان رِفْقُه بِمَنْ جَحَدَه فكيف رِفْقُه بِمَنْ وَحَدَه؟

ويقال إذا كان رَفْقُه بالكفَّار فكيف رفقُه بالأبرار؟

ويقال إذا كان رفقه بمن قال : أنا . . . فكيف رفقه بمن قال : أنت؟

ويقال إنه أَحْسَنَ تربيةَ موسى عليه السلام؛ فأراده أن يرفق به اليومَ في الدنيا على جهة المكافأة . وقيل تفسير هذا ما قال تعالى في آية أخرى : ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة النازعات:١٨].

وقوله : { لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ } : أي كُونا على رجاء أن يُؤْمِنَ . ولم يخبرهما أنه لا يؤمن لئلا تتداخَلَهُما فَترَةً في تبليغ الرسالة عِلْماً منه بأنه لا يؤمن ولا يقبل النصح والتبليغ والإرشاد والهداية .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ

يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [سورة الفرقان:٦٣:٦٤]. والمعنى : إذا خاطبهم الجاهلون السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم . يقول الحسن البصري – رحمه الله تعالى – : " لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حَلُموا . وقال مقاتل بن حيّان لقوله تعالى: { قَالُواْ سَلَامًا } أي : قولاً يسْلَمون فيه من الإثم . وهذه الآية محكمة عند الأكثرين . وزعم قوم : أن المراد بها أنهم يقولون للكفار : ليس بيننا وبينكم غير السلام ، ثم نسخت بآية السيف . ومثله قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٣٢] . وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٧١]

وقوله تعالى – سبحانه وتعالى – ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة فاطر:١٠]

وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة ص:٢٠]. وقوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء والهيبة ، ونفوذ الكلمة ، والنصر على الأعداء ، وأعطيناه العلم الكامل . والإتقان للعمل ، فهو لا يُقْدِم على عمل إلاَّ إذا عرف موارده ، ومصادره مباديه ، وغاياته .

ويقول الشاعر :

قدر لرجلك قبل الخطوة موضعها ... فمن علا زلقا عن غرة زلجا

وألهمناه أيضا حين الفصل فى الخصومات بما يستبين به وجه الحق بلا جنف ولا ميل مع الهوى ، وهذا يحتاج إلى فضل مبير فى العلم ، ومزيد فى الحلم ، وتفهم أحوال الخصوم ، ورباطة الجأش ، وعظيم الصبر ، والذكاء ، والفطانة ، والذكاء الذى لا يتوافر لكثير من الناس . وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى -: ﴿ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ

﴿أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة فُصِّلَت:٣١:٣٣].

والمعنى : لا أحد أحسن قولا ممن جمع بين خصال ثلاث :

الأولى : الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، ويقول ابن سيرين والسدي وابن زيد والحسن: هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب إليه. وقالت عائشة رضي الله عنها ومجاهد: نزلت في المؤذنين .

قال فضيل بن رفيدة: كنت مؤذناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أذنت فقلت: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقل وأنا من المسلمين، ثم قرأ هذه الآية، قال ابن العربي: والأول أصح، لأن الآية مكية والأذان مدني، وإنما يدخل فيها بالمعنى، لا أنه كان المقصود وقت القول، ويدخل فيها أبوبكر الصديق حين قال في النبي صلى الله عليه وسلم وقد خنقه الملعون: "

الثانية : العمل الصالح ، وذلك بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

الثالثة : أن يتخذ الإسلام ديناً ، ويخلص إلى ربه ، من قولهم : " هذا قول فلان " . أي مذهبه ومعتقده .

ويقول الله تعالى أيضا فى هذا الخلق : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [سورة محمد:٢٠]. والمعنى : أي طاعة لله وقول معروف أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل ، وظل زائل ، والآخرة خير لمن اتقى .

فلو أن هؤلاء المؤمنين صدقوا فى إيمانهم ، وإتباعهم الرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيرا لهم عند ربهم ، إذ ينالون به الثواب ، والزلفى عنده ، ويعطيهم ما تقر به أعينهم ، ويدخلهم جنات النعيم .

هذه هى الأخلاق القرآنية الكريمة التى أرشدنا الله إليها فى كتابه العزيز. وهوالكلم الطيب ، والقول الحسن . يقول الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٣]. ويقول الله تعالى فى آية أخرى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [سورة فاطر:١٠].

فلو أن المسلمين تمسكوا بهذه الأخلاق التى أرشدنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لحكموا وسادوا ، وبخلوا وفازوا بسعادة الدارين . (١)

---

1 صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٧٤
- ذاته جـ ٢ ، ص ٣٦٩
- تفسير الخازن جـ ١ ، ص ٤٢
- تفسير ابن كثير جـ ١ ، ص ١٢٠ بتصرف
- كتاب السبع فى القراءات إبن مجاهد ، تحقيق الدكتور / شوقى ضيف . ط . دار المعارف . القاهرة ص ١٦٣ .
- تفسير الماوردى جـ ١ ، ص ١٥٤ بتصرف
- تفسير القرطبى جـ ٦ ، ص ٤٠٩١ و ما بعدها
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٢ ، ص ٤٥٨
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٥٩ بتصرف
- ذاته جـ ٨ ، ص ١٠٦
- ذاته جـ ٨ ' ص ١٣٠
- ذلته جـ ٩ ، ص ٦٦

التشاور

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " التشاور " وهو خلق إسلامى ، وتوجيه ربانى ، فما خاب من استشار ، ولا ندم من استخار ، وهذه هى الديمقراطية الحقة والحرية الصحيحة ، والتى تَتَجلى فى أخذ آراء الناس حتى يستطيعوا الوصول إلى النتائج الصحيحة التى تأخذ بأيديهم إلى طرائق النجاه ، فإن الرأى الواحد هو الاستبداد بعينه ، والدكتاتورية التى لا تمكن فرداً من أفراد المسلمين إعلان رأيه فى أمن وأمان ، وبذلك يشقى المجتمع . ففى ظل الرأى الواحد وعدم التشاور شقاء الأمة ، وشقاء أفرادها ، وسبب كبير فى التأخر والتخلف . يقول الشاعر :

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقى :

والدين يسر والخلافة بيعة ... والأمر شورى والحقوق قضاء

وفى هذه المعانى السامية يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران:١٥٩]. والمعنى فتجاوز عما نالك من أذاهم يا محمد ، وأطلب لهم من الله المغفرة ، وشاورهم فى جميع أمورك ، ليقتدي بك الناس .

يقول الحسن : " ما شاور قوم قط إلاَّ هدوا لأرشد أمورهم " . وكان – عليه الصلاة والسلام – كثير المشاورة لأصحابه . ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى المعنى ذاته ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥٤]. والمعنى : حين تحقق الملك من براءة يوسف – عليه السلام – ونزاهة عرضه مما نسب إليه ، قال : ائتونى به أجعله من خاصتى ، أهل مشورتى ، فلما خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو من خلق وخلق، أي : من شكل وصورة جميلة . ومع هذا الجمال خلق كريم وكمال انسانى . حينذاك قال له الملك : " إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ " . أي ذومكانة وامانة . حينذاك

قال يوسف -عليه السلام- : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة يوسف:٥٥]. يعنى : خازن أمين ، ذوعلم وبصيرة بما يتولاه ، وقد نجح يوسف فى مهمته – صلى الله عليه وسلم – .

ويقول الله تعالى : ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة النمل:٢٩]. والمعنى : قالت " بلقيس " لأشراف قومها : إنه أتانى كتاب عظيم جليل ، وهذا الكتاب مرسل من " سليمان " ثم فتحته فإذا فيه : ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[سورة النمل:٣٠:٣١]. فهواستفتاح شريف بارع ، فلا تتكبروا عَلَيَّ كما يفعل الملوك ، وجيئوني مؤمنين . قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " أي موحدين " . وقال سفيان الثورى : " طائعين " .لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة النمل:٣٢]. أي أشيروا عَلَيَّ فى الأمر، فما كنت لأقضى أمرا بدون حضوركم ومشورتكم ، وأخذ مشورتكم .

يقول صاحب اللَّطائف : " أَحْدَثْ في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام؛ فإن المَلِكَ لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه ، ويجب أن يكون له قومٌ من أهل الرأي والبصيرة .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الشورى:٣٨]. والمعنى : والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم اليه من التوحيد والعبادة . يقول البيضاوى : " { وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ } نزلت في الأنصار دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فاستجابوا له . { وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ } وحافظوا عليها ، وذوشورى بينهم لا ينفردون برأي حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه ، وذلك من فرط تدبرهم وتيقظهم في الأمور، وهي مصدر كالفتيا بمعنى التشاور. { وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ } في سبيل الله الخير.

ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى – : " وقوله: { وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ } أي: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، { وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ } وهي أعظم العبادات لله عز وجل، { وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ } أي: لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: {وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ} . ولهذا كان عليه الصلاة السلام ، يشاورهم في الحروب ونحوها، ليطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– الوفاة حين طعن ، جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم : عثمان، وَعِلي ، وطلحة ، والزبير، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنهم أجمعين ، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم، { وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ } وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [سورة الحُجُرات:٧]. والمعنى : واعلموا أن بين أظهركم رسول الله– صلى الله عليه وسلم – فعظموه ووقروه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، واشفق عليكم منكم ، كما قال – سبحانه وتعالى – : " ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ " . ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال سبحانه: " لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ " . يعنى : لوسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقعتم فى الجهد والإثم ، ولكنه لا يطيعكم فى غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه . وعن أبي نضرة قال : قرأ أبوسعيد الخدري {وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ } قال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أمتكم لوأطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم؟ [1] . وإن جمعاً منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكتاب وتزيين الإيقاع بالبرئ ، وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله – سبحانه وتعالى – جعل الإيمان أحب الأشياء

---

1 رواه الترمذى .

إليهم ، فلا يقع منهم إلاَّ ما يوافقه ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع فى الاختيار ، وَكَرَهَ إليهم هذه الأمور الثلاثة : " الكفر ، والفسوق ، والعصيان " .

والحقيقة : إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر فى مقابلة محبة الإيمان . وتزيينه فى القلوب هوالتصديق بالجنان . أي العقل ، والفسوق وهوالكذب فى مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان فى مقابلة العمل بالأركان ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ . يعنى : هؤلاء الذين صفاتهم هذه هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم وهى التشاور فى الأمر ، وهذه هى الديمقراطية الصحيحة التى أقرها الإسلام ، وبينها رسولنا – صلى الله عليه وسلم – فى سنته المطهرة – عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم – . [(١)]

---

1 تفسير الطبرى جـ ٧ ، ص ٣٣٤ .
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٨٢ . و جـ ٤ ، ص ١١٨ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٤٠٨ .
- لطائف الاشارات جـ ٣ ، ص ٣٦ .
- تفسير البيضاوى جـ ٢ ، ص ١٧٥ .
- تفسير المراغى جـ ٩ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٦ ، ص ٣٣٤٢ .

البعد عن رفقاء السوء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى يوجهنا إليها الله – سبحانه وتعالى – فى كتابه الكريم . ورسولنا – صلى الله عليه وسلم – فى سنته المطهرة " النأى عن رفقاء السوء " حتى لا نورط أنفسنا معهم فى ارتكاب المناكر واقتراف الذنوب ، واجتراح السيئات ،فعن أَبِى مُوسَى عَنْ أَبِيهِ – رضى الله عنه – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – « مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ ، وَكِيرِ الْحَدَّادِ ، لاَ يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ ، أَوتَجِدُ رِيحَهُ ، وَكِيرُ الْحَدَّادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ أَوثَوْبَكَ أَوتَجِدُ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثَةً » .

أجل : إن صديق السوء يشبهه النبي – صلى الله عليه وسلم – بنافخ الكير الذى إن جاورته أوعاشرته أوخالطته إما أن يحرق ثيابك ، واما أن تشتم منه رائحةً كريهةً ، وكذلك صديق السوء ، أما أن يوقعك فى الشر وارتكاب المآثم ، وأما أن يشوه سمعتك ويلطخ سيرتك ، أما الصديق المؤمن التقى الصالح فشبهه النبى – صلى الله عليه وسلم – بحامل المسك / فإما أن تشترى منه مسكاً ، إما أن يعطيك مسكاً هدية من عنده ، إما شممت منه رائحةً طيبةً . فكذلك الصديق الصالح ، إما أن يسمعك خيراً بإسداء نصيحة أوتذكير بالله ، أوفعل خير وطاعة ، إما أن تطلب منه أنت النصيحة فينصحك بصدق وإخلاص ، وإما أن تسمع منه خيراً إن خالطته أوعاشرته . هذا هوالإسلام بأخلاقه الرفيعة وقيمه العالية ومبادئه السامية وإرشاداته القويمة .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٢٩]. والمعنى أن الملك فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ، الذى تخضع له الملوك ، وتعنوله الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذ سواه ، وذلك مثل قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ

﴿ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [سورة غافر:١٦:١٧]. وقوله – سبحانه وتعالى – : " وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا " . يعنى : وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار.

يقول " أبى حيان " : " ودل قوله " عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ " على تيسيره على المؤمنين، ففى الحديث : " إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاه مكتوبة صلاها فى الدنيا " . واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فَرَّطَ فى جنب الله وعض اليدين كناية عن الندم والحسرة . والمراد بالظالم هنا : " عقبة بن معيط " وهى تعم كل ظالم فى كل عصر وزمان ومكان .

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقاً أُخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدمُ، وعضّ على يديه حسرةً وأسفاً . وسواء كان سبب نزولها في " عقبة بن أبي مُعَيط " أوغيره من الأشقياء ، فإنها عامةً في كل ظالم ،

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٦٦:٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويَعَض على يديه قائلا ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٢٨] يعني : مَن صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك " أمية بن خلف، أو أخوه أُبَيّ بن خلف " ، أوغيرهما. { لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ } وهوالقرآن { بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى } أي: بعد بلوغه إِلَيّ ، قال الله تعالى : { وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا } أي : يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

ثم يقول الظالم : يا ليتنى أتبعت الرسول فاتخذت معه الطريق إلى الهدى ينجيني من العذاب ، ويا هلاكي وحسرتى ، يا ليتنى لم أصاحب فُلاَناً وأجعله صديقاً لي . ولفظ فلان كنايةً عن الشخص الذى أضله وهو" أُبَيّ بن خلف " .

ويقول " القرطبي " : وكنى عنه ، ولم يصرح باسمه ليتبادل جميع من فعل مثله . حيث انه أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت ، ثم يقول – سبحانه وتعالى - " وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا " . يعنى : يضله وينويه ، ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره . لذا أوجب الإسلام على المسلم أن يتخير الصديق ، والجليس الصالح .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - فى المعنى نفسه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٤:١٥]. والمعنى : وأمرنا ببرهما وطاعتهما ، والقيام بحقوقهما ، فأخلاق القرآن الكريم تلزم المسلم أن يقوم ببر والديه ، والإحسان إليهما ، وخفض الجناح لهما ، لكنه لا يطيعهما فى المعاصي وإن الحق عليك والدك فى الطلب ، وشدا النكير عليك ، بأن تشرك بى فى عبادة غيرى مما لا تعلم أنه شريك لى ، فلا تطعهما فيما أمراك به ، وإن أدى الأمر إلى استخدام السيف والسلاح فجاهدهما به ، ويروى أن هذه الآية نزلت فى سيدنا " سعد بن ابى وقاص " – رضي الله عنه – قال: لما أسلمت، حلفت أمي لا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً، قال: فناشدتها أوّل يوم، فأبت وصبرت، فلما كان اليوم الثاني ناشدتها، فأبت، فلما كان اليوم الثالث ناشدتها فأبت، فقلت: والله، لوكانت لك مئة نفس لخرجت قبل أن أدع ديني هذا، فلما رأت ذلك ، وعرفت أني لست فاعلاً أكلت.

وفى الآية إشارة إلى أن المسلم يجب عليه أن ينأى بنفسه عن أصدقاء السوء ، وأنه لا صداقة فى معصية الله ، كما لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وخير الأصحاب من أعان على طاعة .

وفى المعنى ذاته يقول الله – عز وجل - : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٤٧:٤٨]. والمعنى : ولا تطع قول الكافر ،

ومنافق فى أمر الدعوة ، وألن الجانب فى التبليغ ، وترفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ما ينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به ، فإنه كافيك جميع من دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه.وهوحسبك فى جميع أمورك ، وداعيك .

ويقول الله – عز وجل – أيضا ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [سورة الصافات:٥١:٥٧]. والمعنى : قال قائل من أهل الجنة : إنى كان لى فى الدنيا صديق وجليس ينكر البعث ، ويقول لى : أتصدق بالبعث والجزاء ؟ وهل إذا متنا وأصبحنا ذرات من التراب ، وعظاماً نخرةً أئنا لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا ، ويقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد . وقال ذلك المؤمن لإخوانه فى الجنة : هل أنتم مطلعون إلى النار لننظر كيف حال ذلك القرين ؟ . فنظر فرآه فى سواء الحجيم . أي : فنظر فأبصر صاحبه الكافر فى وسط الحجيم يتلظى سعيرها ، فخاطبه المؤمن شامتاً وقال له : " والله لقد قاربت أن تهلكنى بإغوائك لى وتزيينك لى القبيح حسناً ، ولولا فضل الله عَلَيَّ بتثبيتى على الإيمان لكنت معك فى النار محضراً ، ومعذباً فى الحجيم ،قال تعالى : ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – فى هذا المعنى أيضا : ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٢٥]. يقول الماوردى : "قوله عز وجل :

{ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ } فيه قولان :

أحدهما : هيأنا لهم شياطين ، قاله النقاش .

الثاني : خلينا بينهم وبين الشياطين ، قاله ابن عيسى لقوله { فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } فيه أربعة تأويلات :

أحدها ما بين أيديهم من أمر الدنيا ، وما خلفهم من أمر الآخرة ، قاله السدي ومجاهد .

الثاني : ما بين أيديهم من أمر الآخرة فقالوا لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللَّذات ، قاله الكلبي .

الثالث : ما بين أيديهم هو فعل الفساد في زمانهم ، وما خلفهم هو ما كان قبلهم ، حكاه ابن عيسى .

الرابع : ما بين أيديهم ما فعلوه ، وما خلفهم ما عزموا أن يفعلوه .

ويحتمل خامساً : ما بين أيديهم من مستقبل الطاعات أن لا يفعلوها ، وما خلفهم من سالف المعاصي أن لا يتوبوا منها .

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:٢٨:٢٩]. والمعنى : وقال الذين كفروا وهم فى النار : يا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس ، ويعنون بذلك " إبليس " ، و" قابيل بن آدم " الذى قتل أخاه " هابيل " ، لأنهما سنا المعصية . نجعلهما تحت أقدامنا أى فى النار . ليكونا فى الدرك الأسفل منها ، وقال " ابن عباس " – رضي الله عنهما – : " ليكونا أشد عذاباً منا " .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [سورة الزُّخرُف:٦٧:٦٩] . والمعنى : إن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداءً إلاَّ من كانت صداقته ومحبته لله .

يقول " ابن كثير " – رحمه الله تعالى – : " كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه . وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوةً يوم القيامة إلا المتقين . تشريفاً وتطييباً لقلوبهم فيقول : " يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ " . فى هذا اليوم العصيب ، ولا انتم تحزنون على ما فاتكم من الدنيا ، فيقول ابن كثير فى

معنى هذه الآية : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوةً إلاَّ ما كان لله، - عز وجل- فإنه دائم بدوامه.

وقال الخازن : " الأخلاء على الكفر والمعصية فى الدنيا سيكونون يوم القيامة أعداء ، فالخلة إذا كانت كذلك صارت عداوة يوم القيامة ، إلاَّ الموحدين المتحابين فى الله – عز وجل - المجتمعين على طاعته . ويقول الله – عز وجل - أيضا : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سورة ق:٢٣:٢٨]. والمعنى : قيل أحدها : أنه الملك الشهيد عليه .

الثاني : أنه قرينه الذي قيض له من الشياطين .

الثالث : أنه قرينه من الإنس .

وفي قوله : { هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ } وجهان :

أحدهما : هذا الذي وكلت به أحضرته .

الثاني : هذا الذي كنت أحبه ويحبني قد حضر.

وقوله عز وجل : { أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ } في ألقيا ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المأمور بألقيا كل كافر في النار ملكان .

الثاني : يجوز أن يكون واحد ويؤمر بلفظ الاثنين كقول الشاعر :

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر   وإن تدعاني أحم عرضاً ممنعاً

الثالث : أنه خارج مخرج تثنية القول على معنى قولك ألق ألق ، قف قف، تأكيداً للأمر. والكَفار[سورة بفتح الكاف] أشد مبالغةً من الكافر. ربنا ما أضللته ، ولكنه ضل بإختياره ، وآثر العمى على الهدى من غير إكراه أوإجبار.

ويحتمل وجهين :

أحدهما : أنه الكافر الذي كفر بالله ولم يطعه ، وكفر بنعمه ولم يشكره .

الثاني : أنه الذي كفر بنفسه وكفر غيره بإغوائه .

وفـى الآيـة محـذوف دل عليـه الـسياق ، كـأن الكـافر قـال : يـا رب ، إن شيطانى هوالذى أطغانى فيقول قرينه : " ربنا ما أطغيته " بل كان هو نفسه ضالاً معانداً للحق فأعنته عليه . فيقول الله – عز وجل – للكافرين وقرناءهم من الشياطين : لا تتخاصموا هنا ، فما ينفع الخصام ولا الجدال ، وقد سبق أن أنذرتكم على ألسنة الرسل بعذابى ، وحذرتكم شديد عقابى ، فلم تنفعكم الآيات والنذر ، وصدق الله – سبحانه وتعالى – إذ يقول :

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة ق:٢٩].

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة المجادلة:٢٢]. والمعنى : لا تجد قوماً يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومودة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان المؤمنين يفسد بمودة الكافرين ؛ إذ من كان مؤمناً حقاً لا يوالى كافراً .

والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما المخالطة والمعاشرة فليست بمحظورة ، ولقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد ، فإنا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أُخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال إفريقية ، وفى مصر وغيرها يوالون الأعداء وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ولوكان فى هذا ذل لهم ودينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا الا بالاستشعار بالعزة والكرامة القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ثم بالغ فى الزجر وأبان أنه لا ينبغي لمؤمن أن يفعل ذلك ولومع الأقارب كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أوالأبناء الذى هم فلذات الأكباد ، أو الإخوان الذين الناصرون لهم ، أوالعشيرة الذين يعتمدون عليهم بعد الإخوان . ومجمل القول : لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله ، لأن من أحب أحدا أمتنع من محبة عدوه ،

فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح ، وكان صاحبه منافقا .

وأخرج الطبرانى والحاكم والترمزى مرفوعاً : " " يبعث الله يوم القيامة عبداً لا ذنب له فيقول له : بأي الأمرين أحب إليك أن أجزيك بعملك أم بنعمتي عليك ؟ قال : رب أنت تعلم أني لم أعصك قال : خذوا عبدي بنعمة من نعمي فما يبقى له حسنةً إلاّ استغرقتها تلك النعمة فيقول : رب بنعمتك ورحمتك فيقول : بنعمتي وبرحمتي ويؤتى بعبد محسن في نفسه لا يرى أن له سيئةً فيقال له : هل كنت توالي أوليائي ؟ قال : يا رب كنت من الناس سَلِمًا قال : هل كنت تعادي أعدائي قال : يا رب لم أكن أحب أن يكون بيني وبين أحد شيء فيقول الله تبارك وتعالى : وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي ويعاد أعدائي " . وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهم لا تجعل لفاجر عندي يداً ولا نعمة فيوده قلبي فإني وجدت فيما أحيت إلي لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله " .

وقيل : أن الآيات نزلت فى سيدنا أبى بكر الصديق – رضي الله عنه –. وقيل : نزلت فى أبى عبيدة الجراح " . وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : "جعل أبو عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبوعبيدة فقتله، فأنزل الله فيه هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله فى قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يواد من حاد الله ورسوله ، وأيدهم بروح منه . يعنى : قواهم وثبتهم بطمأنينة القلب ، والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ، ولا يأبهون لهم . "وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " . يعنى : ماكثين فيها أبدا ، وقد أغدق عليهم من رحمته العاجلة ، والآجلة ، فأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ورضوا عنه لانتهاجهم بما أوتو عاجلاً وآجلاً ، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر فى الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنه ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم . ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده فقال – سبحانه وتعالى – : " أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ " . يعنى : أولئك أنصار الله وجنده ، أهل كرامته ، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ويقول صاحب اللَّطائف فى معنى هذه الآية : " مَنْ جَنَحَ إلى منحرفٍ عن دينه ، أوداهَنَ مُبْتَدِعاً في عهده نزَعَ اللَّهُ نورَ التوحيدِ من قلبه فهو في خيانته جائرٌ على عقيدته ، وسيذوق قريباً وَبَالَ أمره . { أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ } . خلق الله الإيمان في قلوب أوليائه وأثبته ، ويقال : جعل قلوبهم مُطَرَّزَةً باسمه . وأعْزِز بِحُلَّةٍ لأسرار قوم طرازُها اسمُ « الله »! .

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [سورة المدَّثر:٥]. والمعنى : اترك عبادة الأصنام والأوثان ، ولا تقربها . يقول " ابن زيد " : الرجز : الآلهة التى كانوا يعبدونها "فأمره أن يهجرها ، فلا يأتيها ولا يقربها. ويقول الإمام الفخر الرازي : " الرجز هو: اسم للقبيح المستقذر ، مثل الرجس .

يقول – سبحانه وتعالى – : " فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ " .

وقوله : وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . كلام جامع لمكارم الأخلاق ، كأنه قيل له : اهجر الجفاء والسفه وكل قبيح ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين ، والمراد بالهجر هو: الأمر بالمداومة على ذلك الهجران ، كما يقول المسلم " ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ " . وليس معناه أنه ليس على الهداية ، بل المراد : ثبتنا على هذه الهداية . ويقول صاحب اللطائف : " والرجز فاهجر. أي : المعاصي . ويقال : " الشيطان " . ويقال : طهر قلبك من الخطايا وأشغال الدنيا . ويقال : " من لا يصح جسمه لا يجد شهوة الطعام ، كذلك من لا يصح قلبه لا يجد حلاوة الطاعة " .

هذه هى الأخلاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والنأي عن المعاصي ، والبعد عن الشهوات التى تكون سبباً فى انحراف المسلم وانغماسه فى الملذات ، وجريه وراء الشهوات ، فالواجب عليه أن يجعل ربه – عزوجل - نِصْبَ عينيه ، وأن يراقبه فى السر والعلن ، يحذر الآخرة ويرجورحمه ربه . (١)

1- البحر المحيط : لإبن حيان جـ ٦ ، ص ٤٩٥ .
- مختصر ابن كثير جـ ٢ ، ص ٦٣٠ .
- تفسير القرطبى جـ ١٢ ، ص ٢٦ .
- تفسير المراغى جـ ٧ ، ص ٨٢ و ما بعدها .
- ذاته جـ ٨ ، ص ٢٠ .
- ذاته جـ ١٠ ، ٢٧.
- ديوان احمد شوقى .
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٣٤ .
- ذاته ص ٢٤٦ .
- تفسير المازردى جـ ٥ ، ص ١٧٧ و ما بعدها ، ص ٣٥٠ و ما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ، ص ٥٥٥ ، ص ٦٤٨ .
- تفسير الطبرى جـ ٢٩ ، ص ٩٣ .
- التفسير الكبير جـ ٣ ، ص ١٩٣ .

عدم الاختلاط والحجاب للنساء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى توجه المرأة المسلمة إلى الفضيلة ومحاربة الرذيلة وذلك بعدم الخضوع فى القول والتخنث والتكسر والميوعة فى الكلام ، وفى ذلك حفاظ على كرامتها ، وصون لعفافها ، وسياج متين لحمايتها ، ونأى بنفسها عن السهام المريشة التى توجه إليها من ذئاب البشر ، كما أن الحشمة والوقار والقرار فى البيوت يحميها كذلك من نظرة جارزة ولفظة ممقوتة غادرة . فهذا الخُلُق القرآنى الكريم يحمى المرأة ويجعلها تعيش فى أمان حقيقيين ، وأيضا تحافظ بذلك الخلق على كرامتها وكرامة أسرتها .

يقول الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفى هذه المعانى السامية يحدثنا القرآن الكريم فيقول – سبحانه وتعالى :
﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا (٣٢) وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [سورة الأحزاب:٣٢:٣٣].
والمنعي يا نساء النبي أنتن تختلفن عن سائر النساء ، من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق سيدنا محمد – صلى اللّٰه عليه وسلم – . فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء . فإن اتقيتن اللّٰه فأنتن بأعلى المراتب .

يقول القرطبى : " بين تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ، لما منحهن اللّٰه من صحبة الرسول وعظيم المحل منه، ونزول القرآن في حقهن. قوله تعالى: (فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ) في موضع جزم بالنهي إلاَّ أنه مبني كما بني الماضي، هذا مذهب سيبويه، أي لا تلن القول . أمرهن اللّٰه أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال

عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه، مثل كلام المريبات والمومسات.

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما - : يريد فى هذه الآية : " ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم إن اتقيتن فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى لا بنفس اتصالهن برسول الله صلى الله عليه وسلم . فلا تخضعن بالقول أي لا تلن بالكلام فيطمع الذي في قلبه مرض أي فجور والمعنى لا تقلن قولا يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتكن له والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة لأن ذلك أبعد من الطمع في الريبة ، وحب لمحادثة النساء ، وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبه فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال .

ونحن نقول : " إذا كان القرآن الكريم يمنع المرأة من أن تلين فى القول وكلامها مع الرجال الأجانب ، لئلا يطمع بهما من بقلبه مرض ، وهم الفُسْاَق والفجار فكيف بمن تثير كوامن الشجن والشجون بالغناء الماجن ، وتثير الغرائز الكامنة بالغناء الماجن والرقص المتميع والملابس الخليعة ، وما فى ذلك كله من ميوعة وانحلال فى الحفلات الساهرة الداعرة ، والذى تنقله لنا الفضائيات والإذاعات المسموعة والمرئية ، ثم نسمع بعد ذلك من بعض أدعياء العلم يحبذون هذا ويشجعونه بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة ، اللَّهم إنا نعوذ بك ، ونحتمى بسنة رسولك – عليه الصلاة والسلام - من شر هذا الزمان الذى فسق فيه الشباب والشابات وطغت فيه النساء ، وأصبح المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً .

ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : " أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. وَالْزَمن بيوتكن ، ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات ، المتسكعات فى الطرقات لغير ضرورة ، ولا تظهرن زينتكن ومحاسنكن للأجانب مثلما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مُظْهِرةً لمحاسنها كاشفةً ما لا يليق كشفه من بدنها .

يقول قتادة – رضي الله عنه – : " كانت لهن مشية تكسر وتغنج ، فنهاهن عن ذلك ، قاله قتادة ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلمً أنه قال « المَائِلاَتُ المُمِيلاَتُ : اللاَّئِي يَسْتَمِلْنَ قُلُوبَ الرِّجَالِ إِلَـيهِنَّ " . ثم أمرهن بعد ذلك بالحفاظ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . يقول ابن كثير : " نهاهن أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة –وهي: عبادة الله، وحده لا شريك له –وإيتاء الزكاة، وهي: الإحسان إلى المخلوقين، { وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ } فى جميع الأوامر والنواهي ، لتنلن مترتبة المتقيات . وقوله: { إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } وهذا نص في دخول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في أهل البيت ها هنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية . ثم يقول بعد ذلك : يا أهل بيت النبوة يجب ألاَّ تتمنوا ما يتمناه الناس ، وذلك لطهارتكن وكرامتكن على الله ورسوله ، ولذلك طهركم من أوزار الذنوب والمعاصي تطهيرا بليغا .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴾ [سورة الأحزاب:٥٣:٥٥]

والمعنى : إن الآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامى العظيم ، والإضافة هنا للتشريف والتكريم . والمعنى : لا تدخلوا بيوت النبي فى حال من الأحوال ، إلاَّ فى حال الإذن لكم من النبي – صلى الله عليه وسلم – مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والإثقال عليه ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوه من وراء حجاب ، فسؤالكم إياهن ما تبغونه من وراء حجاب أذكى

لقلوبكم ، وقلوبهن ، وأطهر لكم ولهن ، وأنفى للريبة وسوء الظن ولا حرج ولا أثم على النساء فى ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال .

يقول القرطبى : " قوله تعالى : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [سورة الأحزاب:٥٥]. فيه ثلاث مسائل : الأولى – لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية.

الثانية – ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز له، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد يسمى العم أبا، قال الله تعالى: " قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ "وإسماعيل كان العم. والعم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما، فإن المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية.

الثالثة – قوله تعالى: (وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ)لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة ، عطف بأمرهن بالتقوى عطف جملة. وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعينهن في هذا الأمر، لقلة تحفظهن وكثرة استرسالهن.

والمراد " نِسَآئِهِنَّ " نساء المؤمنين ، فالآية عامة وليست خاصة بنساء النبي فحسب . يقول ابن عباس– رضي الله عنهما – : " لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أم تبدى شيئاً منها ، لئلا تصفها لزوجها الكافر. واتقين يا معشر النساء الله ، وأخشينه فى الخلوة والعلانية، فإن الله – عزوجل – لا تخفى عليه خافيةً من أموركن ، فهو يعلم خطرات القلوب ، كما يعلم حركات الجوارح .

يقول الإمام الفخر الرازى : " وهذا فى غاية الحسن فى هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارةً إلى جواز الخلوة بهم ، والتكشف لهم ، فختمها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة ، فعليهم أن يتقوا الله " .

وفى ذات المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأحزاب:٥٩]. والمعنى : قل يا محمد – صلى الله عليك وسلم – لزوجاتك الطاهرات وهن أمهات المؤمنين ، وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهم يلبسن الجلباب الواسع ، الذى يستر محاسنهن وزينتهن ، ويدفع عنهن ألسنة السوء ، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية .

يقول الطبرى : " عن ابن عباس، قوله(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ) أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة. وقال ابن كثير : " وقال محمد بن سيرين : سألت عَبيدةَ السّلماني عن قول الله تعالى: { يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ } ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى. تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها.

ذلك التستر أقرب بأن يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : " أثرن بأن يعرفن، يَأْمُرُ اللهُ تَعَالى رَسُولَه صلى الله عليه وسلم بِأَنْ يَأْمُرَ نسَاءَهُ وبَنَاته والنِّسَاءَ المُؤْمنَات ، بِأَنْ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ، وَأَن يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِنَّ ، وَأَنْ يُغَطِّينَ ثَغْرَةَ نُحُورِهِنَّ بِالجَلاَبِيبِ التي يُدْنِينَهَا عَلَيهِنَّ . وَالغَايَةُ مِنْ ذَلكَ التَّسَتُّرُ ، وَأَن يُعْرَفْنَ بِأَنَّهُنَّ حَرَائِرُ فَلا يُؤْذِيهِنَّ أَحَدٌ ، وَلا يَتَعَرَّضُ لَهُنَّ فَاسِقٌ بِأَذى وَلا رِيبَةٍ ، وَرَبُّكُمْ غَفَّارٌ لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ صَدرَ مِنَ الإِخْلاَلِ بالسِّتْرِ ، كَثِيرُ الرَّحْمَةِ لِمَن امْتَثَلَ أَمْرَهُ ، وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَصَّرَ فِي مُرَاقَبَتِهِ فِي أُمُورِ التَّسَتُّرِ يُدْنِينَ عَلَيهِنَّ – يُرْخِينَ وَيُسْدِلْنَ عَلَيْهِنّ .

وفى المعنى ذاته يقول الله تعالى أيضا : ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ

وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ [سـورة ص:٢٣:٢٤].
والمعنى : قال له داود - عليه السلام - : لقد ظلمك بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة ، وإن الكثيرين من الشركاء ليتعدى بعضهم على بعض ، إلاَّ المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فإنهم لا يبغون ولا يظلمون ، وقليل ما هم ، وعلم داود - عليه السلام - وأيقن أنما اختبرناه بهذه الحادثة ، وتلك الحكمة ، فطلب المغفرة من الله ، وخر ساجداً لله تعالى ورجع اليه بالتوبة والندم على ما فرط منه . ثم قال القرآن : " وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ". يعنى : له قربةً وكرامةً بعد المغفرة ، وحسن مرجع فى الآخرة .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة ص:٣٢]. والمعنى : آثرت حب الخيل حتى شغلنى عن ذكر الله . يقول المفسرون : عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه ، فأجريت بين يديه عشيا متشاغلاً بحسنها ، وجريها ومحبتها عن ذكر له خاص ، حتى غابت الشمس واختفت عن الأنظار.

هكذا يحرص القرآن الكريم على توجيه المسلمين والمسلمات للحفاظ على كرامتهن وصون بيوتهن ، وستر أجسادهن حتى تصبح المرأة المسلمة محتشمة كريمة عظيمة فى نفسها ولدى الناس .(١)

1 - صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٥٢٣ و ما بعدها .
- تفسير القرطبى جـ جـ ١٤ ، ص ١٧٧ ، ص ٢٢٤ ، ص ٢٣١ .
- زاد المسير جـ ٦ ، ص ٣٧٨ .
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٩٤ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ١١٤ ، ص ٢٠٢ .
- الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ، ص ٤٢٥ ، جـ ٤ ، ص ٧٠
- تفسير ابى السعود جـ ٤ ، ص ٢٤٨
- تفسير البيضاوى جـ ٢ ، ص ١٢٠
- حاشية الصاوى جـ ٣ ، ص ٢٨٧
- التفسير الكبير جـ ٢٥ ، ص ٢٢٧
- زاد المسير جـ ٦ ، ص ٤٢٠
- تفسير الطبرى
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ٥٤ ــ ٥٩

الإفاءة إلى أمر الله

ومن الأخلاق القرآنية الإفاءة إلى أمر الله ، حيث إن الإسلام يوجهنا ويرشدنا إلى الإصلاح بين الناس ، ويرسم لنا الطريق إلى ذلك فإن طائفتان من المؤمنين أقتتلوا فيجب أن نصلح بينهما ، فإن بغت أحداهما على الأُخرى وجب قتال الباغية حتى تفئ وترجع إلى أمر الله ، وتتحقق العدالة بين الطائفتين ، وفى ذلك الأمر دفع للظلم وإقرار الحق ، واستقرار المجتمع المسلم ليعيش فى أمن وأمان حقيقيين . أجل : إن القرآن بأخلاقه الشاملة ، ونظريته الشمولية ، ليسعد الناس جميعاً فى الدنيا بالاستقرار والطمأنينة ، وفى الآخرة بالفوز بجنةٍ عرضها السموات والأرض أعدت للذين يعملون الصالحات .

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحُجُرات:٩]. والمعنى : وإن حدث أن فئتين أوجماعتين من إخوانكم المؤمنين جنحوا إلى القتال فأصلحوا بينهما ، واسعوا جهدكم للإصلاح بينهما ، والجمع فى قوله تعالى : " ٱقْتَتَلُواْ " . باعتبار المعنى : حيث إن كل فرد مقاتل لأخيه المؤمن تتبعه جماعة ، فلذلك قال تعالى:" ٱقْتَتَلُواْ " . وأما " التثنية " فباعتبار اللَّفظ . فإن بغت أحداهما على الأُخرى وتجاوزت حدها فى الظلم والطغيان ، ولم تقبل الصلح ، وصممت على البغي فقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى حكم الله وشرعه ، وتقلع عن البغى والعدوان ، وتعمل بمقتضى أخوة الإسلام ، فإن رَجَعت وَكَفت عن القتال فأصلحوا بينهما بالعدل ، دون حيف ، أوظلم على احدى الطائفتين والفئتين . وأعدلوا فى جميع أموركم ، إن الله يحب العادلين الذين لا يجورون فى أحكامهم .

يقول البيضاوى : " والآية نزلت فى قتال حدث بين قبيلتى الأوس والخزرج فى عهد النبي – صلى الله عليه وسلم - ، وكان فيه ضرب بالسيف والنعال، وهى تدل على أن الباغى مؤمن ، وأنه إذا كف عن الحرب ترك ، وأنه

يجب تقديم النصح والسعى فى المصالحة . يقول صاحب اللَّطائف : " قوله جلّ ذكـــره : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [ســورة الحُجُـرات:٩] . تدل الآية على أن المؤمن بفسقه – والفسق دون الكفر- لا يخرج عن الإيمان لأن إحدى الطائفتين – لا محالة – فاسقة إذا اقتتلا . وتدل الآية على وجوب نصرة المظلوم؛ حيث قال :{ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ }الإشـارة فيـه : أن الـنفس إذا ظَلَمـتْ القلـب بدعائــه إلى شهواتها ، واشتغالها في فسادها فيجب أن يقاتلها حتى تثخن بالجراحة بسيوف المجاهدة ، فإن استجابت إلى الطاعة يُعْفَى عنها لأنها هي المطيَّةُ إلى باب الله .

هذا هو الإسلام بعدالته ، وحكمته ، وتوجهاته الراشدة التى تجعل المجتمع يعيش فى أمن وسلام ، وهدوء واستقرار .

الفداء والاستشهاد والإيثار

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الفداء ، والاستشهاد ، والإيثار " فالإسلام يطالب المسلمين بالتضحية فى سبيل الله لإسترداد الكرامة المسلوبة ، وليعيد المسلمون أمجادهم ، وعزتهم ، وكرامتهم ، ولا يكون ذلك إلاَّ بالتضحية والفداء فى سبيل الله وعزة الإسلام والمسلمين ويحملهم أرواحهم على أكفهم طلباً للشهادة فى سبيل نصرة الإسلام ، وإعزاز المسلمين ، كما أن الإسلام يحمد للملم الإيثار ، وهى التضحية باللذائذ والشهوات ، وإيثار الدار الآخرة على الدنيا ، وإيثار الغير على النفس .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[سورة الحشر:٩].ويقول–سبحانه وتعالى-:﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الإنسان:٨]. هكذا تكون التضحية والفداء والإيثار ، فهى أخلاق إسلامية.

وفى هذه المعانى السابقة يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾[سورة الأحزاب:٦].

ويقول تعالى أيضا : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٢٣:٢٤]. والمعنى : إن النبي – صلى الله عليه وسلم – أرأف بهم ، وأعطف عليهم ، وأحق بهم من أنفسهم فى كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وَحُكْمَهُ أنفذ ، وطاعته أوجب . وزوجاتهم الطاهرات وهن أمهات المؤمنين فى وجوب التعظيم والاحترام ، وتحريم نكاحهن .

ويقول أبى السعود فى تفسيره : " كلَّ نبيَ أبٌ لأمَته من حيثُ إنَّه أصلٌ فيما به الحياة الأبدية ولذلك صار المؤمنون إخوةً { وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ } أي منزلات منزلَة الأمَّهاتِ في التَّحريم واستحقاق التَّعظيم ، وأما فيما عَدا ذلك فهنَّ كالأجنبياتِ ، ولذلك قالتْ عائشةُ رضي الله عنها : لسنا أُمَّهاتِ النِّساءِ { وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ } أي ذُوو القراباتِ { بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ } في التَّوارث وهونسخٌ لما كان في صدر الإسلام من التَّوراث بالهجرةِ والمُوالاة في الدِّين { بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ } في اللَّوح أوفيما أنزلَه وهوهذه الآيةُ أوآيةُ المواريثِ أوفيما فرضَ الله تعالى { مِنَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ } بيانٌ لأولي الأرحامِ أو صلةٌ لأُولي أو أولُوا الأرحام بحقِّ القرابةِ أَولى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الدِّين ومن المهاجرينَ بحقِّ الهجرةِ { إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا } استثناءٌ من أَعلمِّ ما تُقدَّرُ الأولويَّةُ فيهِ من النَّفعِ . والمرادُ بفعلِ المعروفِ التَّوصيةُ أومنقطع { كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا } أي كان ما ذُكرَ من الآيتين ثابتاً في اللَّوح والقُرآن " .

ويقول الله تعالى فى معنى الفداء والإيثار والاستشهاد : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة محمد:٤:٥]. والمعنى : فإذا لقيتم الذين كفروا فى القتال فاحصدوهم حصدا بالسيوف حتى إذا غلبتموهم ، وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوهم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم ، أويهربوا منكم ثم أنتم بعد إنتهاء الحرب ، وانتهاء المعارك بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم ، وتشاطرونهم عليه حتى لا يكون حرب مع المشركين ، ولا قتال . وذلك بزوال شوكتهم ، وهزيمتهم ، والنصرة عليهم .

ومثل هذا الآية قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٣٩]. يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " لما كثر المسلمون ، واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى { فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا

فِدَآءً } وهذا القول هوالصحيح ولأنه به عمل النبي – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء بعده . وعن أبي هريرة قال : « بعث النبي – صلى الله عليه وسلم – خيلاً قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له " ثمامة بن أثال " فربطوه في سارية من سواري المسجد فخرج إليه النبي – صلى الله عليه وسلم –

فقال : ما عندك يا ثمامة؟ .

فقال : عندي خير يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان من الغد .

قال : ما عندك يا ثمامة؟ .

قال : ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى إذا كان من الغد قال : ما عندك يا ثمامة ؟ .

قال : عندي ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطلقوا ثمامة .

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد .

فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله والله ما كان على الأرض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي . والله ما كان من دين أبغض من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره النبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر فلما قدم مكة قال له قائل : أصبوت ؟ قال : لا ولكني أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وعن عمران بن حصين قال : « أسر أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني عقيل فأوثقوه وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين الذين أسرتهما ثقيف » أخرجه الشافعي في مسنده .

وأعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أُخرى ، فالأمم فى حال الطفولة عقولها أشبة بالشاب المراهق الذى لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ، ويوقع الأذى بهم ، وهم يزيدون فى أذاه ، وينكلون به ، وهذه هى حال الأمم اليوم . ألاَّ إن الحرب تقوى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو، كما أنها توقظ الشعور، وتفتح مغاليق الأمور، وتيسر العسير. قال " أرسطو" للأسكندر : " إن الراحة مضرة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقى أمة فأجعلها تخوض الحروب ، فإن ذلك يفتح لها باب السعادة ، والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير مُعَرّضة للزوال . فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحروب لدى من قبلها فكما يفرح الرجل فى الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء ، وشفاء الغليل ، وجمع الرجال ، والسلاح ، والكراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها ، وانشراح صدورها بظهور أمم اخرى تكافح معها فى ميدان الحياة ، ويكون كل فرد فى الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجد فى العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذةً وفرحاً أشد من فرح المنتصر فى ميدان القتال .

وإن الأمم لا تزال فى الطور الأول ، فهى تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها وسيأتى حين تسعى لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ، ويكون الناس جميعاً بعضهم لبعض كالآباء والأبناء . وإلى حال الكمال أشار – سبحانه وتعالى – بقوله : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ . وإلى حال النقص أشار – سبحانه وتعالى – بقوله : " ذَٰلِكَ " . يعنى : هذا الذى أمركم به عن قتل المشركين إن لقيتموهم فى حرب ، وشدوا وثاقهم فى أسرهم ، والمن والفداء حتى تضع الحرب أوزارها . هو الحق الذى أمركم به ربكم . وهو السنة التى جرى عليها الإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم ما دامت

فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها الفكرى والعقلى ، والخلقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لا يكون حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفراده ، وشقاؤه بشقائهم .

ثم يبين الله – سبحانه وتعالى – أن هذه السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ولوشاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال تعالى : **وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** . والمعنى : ولو يشاء الله لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفاكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلوبعضكم ببعض فيختبركم بها ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى يثيب إلى الحق ، وفى الجهاد تقويةً لأبدانكم ، ورقى لعقولكم ، ونفاذ لكلمتكم ، وجمع شملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة ، والتجارة والصناعة ، وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلاَّ بها ، وهكذا ترتقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتعم المدنية ، ويرقى النوع الانسانى ولا يعيش فى هذا الوسط الصاخب إلاّ الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك، وهذه سنة الله فى الكون .

ثم يذكر جزاء المجاهدين فى سبيل الله فيقول تعالى : **وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ** . يعنى : والذين جاهدوا أعداء الله فى دين الله ، وفى نصرة ما بعث الله به رسوله – صلى الله عليه وسلم – من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ضائعة سُدَى كما اذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الفائدة والجدوى . وروى أحمد أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " « يُعْطَى الشَّهِيدُ ستَّ خصَالٍ عنْدَ أَوَّل قَطْرَة منْ دَمه يُكَفَّرُ عَنْهُ كُلُّ خَطيئَةٍ وَيُرَى مَقْعَدَهُ منَ الجنة وَيُزَوَّجُ منَ الْحُورِ الْعِينِ وَيُؤَمَّنُ منَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ وَمنْ عذاب الْقَبْرِ وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ ». (١)

ويروى أن هذه الآية نزلت فى يوم أُحُد حين نادى المشركون ، " اعل هبل " . وهوأكبر أصنامهم ، ونادى المسلمون " الله أَعلى وأجل " . وقال المشركون : يوم بيوم

1 - رواه أحمد .

بدر والحرب سجال . فقال النبي : قولوا لا سواء قتلانا فى الجنة أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم فى النار يعذبون . فقال المشركون : إنا لنا العزة ، ولا عزة لكم . فقال المسلون : " الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم يفسر ما ذكر آنفا بقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ [سورة محمد:٥]. والمعنى : سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم فى العقبى ، ويتقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقراً فى الجنة لا يضل فى طلبه . لا جرم أن لكل امرئ فى الحياة الدنيا عملاً يستوجب حالاً فى الآخرة لا يتعداها ، كما يحصل كل من نال إجازة فى علم ، أو صناعة على عمل يشاكل إجازته فى قوانين الدولة . والناس فى الآخرة أشبه ما يكون لأنواع السمك فى البحر الملح ، وأنواع الطير فى جو السماء لكل منها جولا يتعداه . هكذا لكل من الصالحين درجة فى الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ، كما أن السمك منه ما هو قريب من سطح الماء ، ومنه من يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار ، أو آلافها . وإلى ذلك يشير الله تعالى إلى ذلك بقوله وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ . وعن مجاهد – رضي الله عنه – قال : " يهدي أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله تعالى لهم منها لا يخطؤن كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا وفي الحديث لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا وذلك بإلهام منه عز وجل وأخرج ابن أَبي حاتم عن مقاتل أنه قال : بَلَغَنا أن الملك الذي كان يحفظ عمل الشخص في الدنيا يمشي بين يديه في الجنة ويتبعه الشخص حتى يأتي أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه .

وفى المعنى ذاته يقول المولى – سبحانه وتعالى – : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحديد:١٩]. والمعنى : إن الذين وحدوه وآمنوا برسله هؤلاء هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم

ونورهم . فهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الذين يجمعون كل المراتب ، وجميع الدرجات، ولهم فى الآخرة الثواب الجزيل ، والشهداء نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ومن خلفهم ، أما الذين جحدوا بوحدانية الله ، وكذبوا بآياته أولئك هم الخلود فى النار مخصوص بالكفار من حيث إن الصيغة تشعر بالاختصاص ، والصحبة تدل على الملازمة .

وفى المعنى ذاته يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحشر:٩]. والمعنى والذين اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً ، وآمنوا قبل كثير من المهاجرين وهم الأنصار – رضي الله عنهم – . يقول القرطبى : " والذين تبوأوا الدار من قبل المهاجرين . والتبوء : هوالتمكين والاستقرار واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ، كقوله تعالى : فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم.

ثم تتحدث الآية عن الإيثار وهوقوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وهوموطن الشاهد لدينا : ومعناه : ومن حمد الله ، وسلم من البخل فقد أفلح ونجح والشح هوالبخل الشديد مع الجشع والطمع ، وهوغريزة فى النفس ولذلك أضيف إليها فقال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ . فأضاف الشح إلى النفس . ويقول عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – : " ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ، وإنما الشح أن تطمع عينه فيما ليس له " . وفى الحديث : " اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ »(1)

وعن أَبُوزُرْعَةَ حَدَّثَنَا أَبُوهُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا .

1 رواه مسلم

قَالَ – صلى الله عليه وسلم – : « أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى ، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا ، وَلِفُلاَنٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ »[1] . والبذل الواسع عن إخلاص ورحمة، يغسل الذنوب ، ويمسح الخطايا .

ويقول الله تعالى فى هذا المعنى : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الإنسان:٨]: . والمعنى : ويطعمون الطعام مع شهوتهم له ، وحاجتهما ، أي فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير ، فعدم الناصر والكفيل ، وأسيراً وهو كم أسر فى الحرب من المشركين .

ويقول الحسن البصري : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول : أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه . وعند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفار في دار الإسلام ولا تصرف إليهم الواجبات . والإحسان إليهم في الحال إلى أن يرى الإمام فيهم ما يرى من قتل أو فداء أو إسترقاق ، لا ينافي احتمال حكم الإمام عليهم بالقتل في المآل لأن سد خلتهم بالإطعام واجب على الفور وذلك يحتمل التراخي كما في حق من يلزمه القصاص ولم يكن له مال . ثم هذا الإطعام يجب أولاً على الإمام فإن لم يفعله وجب على المسلمين .

قال قتادة : كان أسيرهم يومئذ المشرك فأخوك المسلم أحق أن تطعمه . ثم الإطعام ليس بواجب على التعيين ولكن الواجب مواساتهم بأي وجه كان . وإنما عبر عن ذلك بالإطعام لأن سبب النزول كان كذلك ، ولأن المقصود الأعظم من أنواع الإحسان الطعام الذي به قوام البدن . نبه تعالى إلى أن أولئك الأبرار مع حاجتهم إلى ذلك الطعام فى سد جوعتهم ، وجوعة عيالهم ، يطيبون نفساً عنه للبؤساء ، ويؤثرون به على أنفسهم مثل قوله تعالى : ﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الحشر:٩]. ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [سورة الإنسان:٩].

1 رواه البخاري

إنما نحسن اليكم ابتغاء مرضاة الله ، وطلب ثوابه ، ونحن لا نبتغى من وراء هذا الإحسان مكافأة ، ولا نقصد الحمد والثناء منكم .

يقول " مجاهد " – رضي الله عنه – : " أما والله ما قالوا بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب فى ذلك راغب .

هذا هو القرآن الكريم الذى جعل الفداء والاستشهاد والإيثار خُلُقاً من أخلاقه ، وطالب المسلمين أن يحولوا هذه التوجهات إلى أعمال ، كى يفوزوا بسعادة الدارين ، الدنيا والآخرة والفوز برضوان الله – سبحانه وتعالى – حتى يُكَوّن المسلم مجتمعاً متماسكاً قوى البنيان ، مجتمعاً متكافلاً تسوده المحبة ، ويعمه الانفاق والإيثار ، وحتى يكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .[1]

1- صفوة التفاسير ، جـ ٣ ، ص ٢٣٤ بتصرف .
- ذاته ، ص ٤٥٣ بتصرف .
- تفسير البيضاوى جـ ٣ ، ص ٣٧١ .
- تفسير أبو السعود جـ ٤ ، ص ٢٠٣ .
- لطائف الاشارات جـ ٣ ، ٤٤٠ .
- زاد المسير لابن الجوزى جـ ٦ ، ص ٣٥٤ .
- تفسير القرطبى جـ ١٤ ، ص ١٢٦ .
- تفسير المراغى جـ ٩ ، ص ٤٨ – ٥٢ .
- حاشية الصاوى جـ ٤ ، ١٩٠ .
- روح المعانى جـ ٢٩ ، ص ١٥٥ .

الثقة فى وعد الله

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الثقة فى وعد الله " – سبحانه وتعالى – وهى خلق ينبع من الإيمان الصادق ، واليقين الثابت والعقيدة التى لا تزعزعها الأحداث ، ولا تهزها الأعاصير ولا تعبث بها نكبات الدهر ، ولا كر الحدثان ، ولا تعاقب الدهور والأزمان ، فقد وعد الله المؤمنين بجنات عرضها السماوات والأرض أعدها للمتقين ، والأولياء ، والصالحين ، كما وعدهم – عز وجل – بأن يرزقهم ، ويوفقهم ، وييسر لهم أمورهم فى الدنيا والآخرة إن هم اتقوه ، وخافوه ، آمنوا به ، وصدقوا برسله وبما أنزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وباليوم الآخر، والبعث والنشور ، والنصرة على الأعداء ، إن هم جاهدوا فى سبيل الله جهاداً صادقاً لإعلاء كلمته ، ورفع رايات التوحيد عاليةً خفاقة فى كل أرجاء المعمورة .

فالثقة فى وعد الله لون من ألوان الأخلاق التى وردت فى كتاب الله العزيز القرآن الكريم فيقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الحج:١٥].

والمعنى : من كان يظن أن لن ينصره الله ، يقول مجاهد – رضي الله عنه– : " أن يرزقه الله ، والنصر فى كلام العرب هوالرزق . يقول الأعشى :

أبوك الذي أجرى عليّ بنصره فأنصب عني بعده كل قابل

معناه أن لن يمطر أرضه ، ومنه قول رؤبة :

إني وأسطار سطران سطرا لقائل يا نصرَ نصرٍ نصرا

ويقال للأرض الممطرة أرض منصورة .

{ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ }والنصر في الدنيا بالغلبة ، وفي الآخرة بظهور الحجة . ويحتمل وجهاً آخر أن يكون النصر في الدنيا علو الكلمة ، وفي الآخرة علوا المنزلة {فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ } فيه تأويلان:

أحـــدهـما : فليمدد بحبل إلى سماء الدنيا ليقطع الوحي عن محمد ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ أي يذهب الكيد منه ما يغيظه من نزول الوحي عليه .

والثاني : يقـول السـدى : فليمدد بحبل إلى سماء بيته وهوسقفه ، ثم لِيخْنقَ به نفسه فلينظر هل يذهب ذلك بغيظه من ألا يرزقه الله تعالى .

ويقـول صـاحب اللطـائف : " أي أنَّ الحقَّ - سبحانه - يرغم اعداءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَمَنْ لم تَطبْ نفْسُه بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده به فليقتلْ نَفْسَه من الغيظ خَنْقاً ، ثم لا ينفعه ذلك كما قيل :

إنْ كنتَ لا ترضـى بمـا قـد تـرى ... فـدونَكَ الحَبْـلَ بـه فـاخْنق

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن هذا الخلق وهوالثقة فى وعد الله فيقـول تعـالى : ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الأحزاب:٢٢] . والمعنى : لما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، قالوا : " هذا ما وعدنا الله ورسوله من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ، وصدق الله فى وعده ، وصدق رسوله فيما بُشِر به .

يقـول المفـسرون : " يقول : معتب بن قشيروأصحابه : لما كان حيث أَمَرَنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نحفر الخندق ، عرض لنا في بعض الجبل صخرة عظيمة شديدة لا تدخل فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها أخذ المعول ، وألقى ثوبه وقال : « بسم الله ، ثم ضرب ضربة فكسر ثلثها ، وقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثاً آخر فقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصور المدائن البيض ، ثم ضرب الثالثة فقال : بسم الله . فقطع بقية الحجر وقال : الله أكبر . أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء » .

فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا : " هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم - وما زادهم الذى رأوه من كثرة جند الأحزاب المتحزبة ضد الإسلام والمسلمين ، ومن شدة الضيق والحصار إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره .

ومثلها قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة فاطر:٥]. ومثلها أيضا قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة يس:٥٢]. ومثلها أيضا قول الحق – سبحانه وتعالى -: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [سورة الصافات:١٧١ :١٧٣]. ومثلها أيضا قوله – سبحانه وتعالى : ﴿ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة ص:١١]. ومثلها أيضا قول المولى – عز وجل - ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة غافر:٥٠ :٥٥]. وأيضا ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [سورة غافر:٧٧]. والمعنى : أي ننصر الرسل والمؤمنون بالحجة والظفر ، والانتقام لهم من الكفرة المجرمين فى هذه الحياة الدنيا ، وفى الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون بأعمال العباد ، من ملك ، نبى ، ومؤمن . يقول الإمام الفخر الرازى : " والآية وعد من الله تعالى لرسوله – صلى الله عليه وسلم - بأن ينصره على أعدائه فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة غافر: ٥٠ :٥٥] . والمعنى : فاصبر ايها الرسول لأمر ربك وبلغ قومك ، ومن أمرت بإبلاغه ما لأنزل إليك ، وأيقن بأن الله منجز وعده ، وناصرك ومن صدقك ، وآمن بك ، على من كذبك وأنكر ما جئت به من عند ربك ، وسل ربك غفران ذنبك ، وعفوه عنك ، وَصَل شكراً لله طرفى النهار ، كما جاء فى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ...﴾ [سورة هود:١١٤]. وقد يكون المراد من ذلك المواظبة على ذكر الله ، وألا يفتر اللسان عنه ، ولا يغفل القلب حتى يدخل فى زمرة الملائكة الذين قال الله تعالى فى وصفهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأنبياء:٢٠] .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [سورة غافر:٧٧]. والمعنى : فاصبر أيها الرسول على ما يجادلك به المشركون فى آيات الله التى أنزلها عليك وعلى تكذيبهم إياك ، فإن الله منجز لك فيهم ما وعدك من الظفر بهم ، والعلو عليهم . وإحلال العقاب بهم ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة ، مثلها قول الله تعالى فإما ما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب والنقمة ، مثل القتل والأسر " يوم بدر " فذاك ما يستحقونه ، أو نتوفينك مثل ذلك ، فإلينا يرجعون يوم القيامة ، فنجازيهم بأعمالهم ، وننتقم مهم أشد الانتقام ، نأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة غافر:٧٧]. ومثلها قول الحق : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الفتح:٢٧]. وقوله تعالى أيضا : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة المجادلة:٢٠ :٢١] وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الصف:٩]. وقوله تعالى أيضا : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الصف:١٣].

وفى المعنى ذاته يقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطلاق:٧]. والمعنى : هذا بيان لقدر الإنفاق . والمعنى : لينفق الزوج على زوجه ، وعلى ولده الصغير ، على قدر وسعه وطاقته . يقول صاحب التسهيل : " لينفق ذو سعة من سعته أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج مالا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس ، يسراً وعسراً . ومن ضيق عليه رزقه فكان دون الكفاية فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه من المال. فلا يكلف الله أحداً إلاَّ بقدر طاقته واستطاعته ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى.

يقول أبوالسعود : { لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا } فَإِنه تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وفيه تطييب لقلب المعسر ولذلك وعد له باليسر فقال : { سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } أي عاجلاً وآجلاً . أي بعد الشدة السعة والرخاء ، وفيه بشارة للفقراء بفتح أبواب الرزق عليهم .

هذه هى الثقة فى الله وفى وعده الذى وعد به عباده المؤمنين ، وإن وعده لن يتخلف ، حيث إن الله لا يخلف الميعاد ، والآيات التى سقناها آنفا تؤكد صدق قولنا ، فالله هوالحق ، ووعده الصدق الذى لا يتخلف . (١)

1- التسهيل فى علوم التنزيل جـ ٤ ، ص ١٢٩ .
- تفسير أبو السعود جـ ٥ ، ص ١٧٢ .
- تفسير المراغى جـ ٨ ، ص ٩٦ .
- ذاته ص ٨٢ ــ ٨٣ .
- لطائف الاشارات جـ ٢ ، ص ٥٣٣ ، ٣٣٤ .
- النكت و العيون للماوردى جـ ٢٧ ، ص ٧٥ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٥٢١ .

عدم قبول الرشوة

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " عدم قبول الرشوة " وهو خلق قرآني حيث إن الإسلام يحرم الرشوة ، لأنها تفسد حياة المسلمين وهى داء ينخر فى جسد الأمة الإسلامية ، ويورده موارد الهلاك كما أنه يترتب على شيوع الرشوة فى المجتمع فساد حياتهم ، وضياع حقوق الآخرين ، فضلاً عن أنها حرام بل هى "سُحْتَ " يأكله المرتشى . ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " لعن الله الراشي والمرتشى والرائش " . والرائش هو الوسيط الذى يقوم بتوصيل الرشوة للمرتشى ، فإنه يأخذ نفس الحكم وهو اللَّعنة من الله – عز وجل – .

وقد رفض سيدنا " سليمان " – عليه السلام – هدية بلقيس ملكة سبأ وكانت بلقيس قد بهثت وأرسلت هدية لسيدنا سليمان – عليه السلام – لتختبره، وتمتحنه ، ولذلك عللت إرسالها الهدية بقولها : " إن قبل الهدية فهو ملك نقاتله ، وإن لم يقبل الهدية فهو نبى نؤمن به .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " قالت لقومها: إن قبل الهدية فهوملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه. ولذلك يقول الإمام أبوحنيفة – رحمه الله تعالى – : " إذا ارتشى الإمام وجب عزله ، وبطل كل حكم كان قد حكم به لأنه يُعَد فاسقاً ، ولا يجز حكومة الفاسق " . والمقصود بالإمام كل من ولى أمر من أمور المسلمين صغر أم كبر .

فالهدية رشوة إن قدمت لغرض من الأغراض الدنيوية كالحصول على حق ليس لك ،وروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استعمل رجلاً من الأنصار يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم بعث إليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليحاسبه ، فقال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلي ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إنا نستعمل رجالاً منكم على ما ولانا الله ، فإذا قدم أحدكم قال : هذا لكم ، وهذا أهدي إلي ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر ما يهدى إليه ، من عمل لنا منكم عملاً فليأتنا بقليله وكثيره ، وليحذر أحدكم أن يأتي يوم القيامة ببعير يحمله على رقبته له رغاء أوبقرة لها خوار أوشاة تيعر » .

وفى المعنى نفسه يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة النمل:٣٥ :٣٦] . والمعنى : وإنى سأبعث إليه بهدية عظيمة تليق بمثله فأنظر هل يقبلها أم يردها . ويقول قتادة – رضي الله عنه –:"ما كان أعقلها فى إسلامها وشركها !! فقد علمت أن الهدية تقع موقعها من الناس . وفى النكت والعيون للماوردى نراه ينسب هذا القول لقتادة – رضي الله عنه – حيث قال :" يرحمها الله إن كانت لعاقلة فى إسلامها وشركها ، فقد علمت أن الهدية تقع موقعها من الناس . ونحن نرى أنه لا مانع من أن يكون هذا القول لابن عباس وقتادة معا – رضي الله عنهما – وإن كانت الألفاظ مختلفة بعض الاختلاف .

ويقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة النمل:٣٦ :٣٧].

ذكر غير واحد من المفسرين ، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير: وأرسلت جواري في زي الغلمان، وغلمان في زي الجواري ، وقالت : إن عَرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي . قالوا : فأمرهم سليمان – عليه السلام – أن يتوضؤوا، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء، وجعل الغلام يغترف ، فميزهم بذلك . وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها ، والغلام بالعكس. وقيل: بل جعلت الجواري يغتسلن من أكفهن إلى مرافقهن ، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم . ولا منافاة بين ذلك كله .

وذكر بعضهم : أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء ، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت ، ثم ملأه من ذلك ، وبخرزة وسلك ليجعله

فيها، ففعل ذلك. والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم : { أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ } أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم ؟! { فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم } أي : الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ، { بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ } أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلاَّ الإسلام أو السيف.

قال الأعمش ، عن ابن عباس ، رضي الله عنه : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة . فلما رأت رسلها ذلك قالوا : ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

ويقول القرطبى : " قوله تعالى: وأنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فيه ست مسائل: الأولى - قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ...﴾ [سورة النمل:٣٥] هذا من حسن نظرها وتدبيرها، أي إنى أجرب هذا الرجل بهدية، وأعطيه فيها نفائس من الأموال، وأعرب عليه بأمور المملكة، فإن كان ملكا دنياوياً أرضاه المال وعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدين، فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر الناس في تفصيلها، فقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: أرسلت إليه بِلَبِنة من ذهب، فرأت الرسل الحيطان من ذهب فصغر عندهم ما جاءوا به.

وقال مجاهد: أرسلت إليه بمائتي غلام ومائتي جارية. وروى عن ابن عباس: باثنتى عشرة وصيفة مذكرين قد ألبستهم زى الغلمان، واثنى عشر غلاماً مؤنثين قد ألبستهم زى النساء، وعلى يد الوصائف أطباق مسك وعنبر، وباثنتي عشرة نجيبةً تحمل لبن الذهب، وبخرزتين إحداهما غير مثقوبة، والأخرى مثقوبةً ثقباً معوجاً،

وبقدح لا شئ فيه، وبعصا كان يتوارثها ملوك حِمْيَّر، وأرسلت الهدية مع جماعة من قومها.

وقيل: كان الرسول واحدا ولكن كان في صحبته أتباع وخدم.

وقيل: أرسلت رجلاً من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو، وضمت إليه رجالاً ذوى رأى وعقل، والهدية مائة وصيف ومائة وصيفة، وقد خولف بينهم في اللباس، وقالت للغلمان: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث يشبه كلام النساء، وقالت للجواري: كلمنه بكلام فيه غلظ يشبه كلام الرجال، فيقال: إن الهدهد جاء وأخبر سليمان بذلك كله.

وقيل: إن الله أخبر سليمان بذلك، فأمر سليمان عليه السلام أن يبسط من موضعه إلى تسع فراسخ بلبنات الذهب والفضة، ثم قال: أي الدواب رأيتم أحسن في البر والبحر ؟ قالوا: يا نبى الله رأينا في بحر كذا دواب منقطة مختلفة ألوانها، لها أجنحة وأعراف ونواصى، فأمر بها فجاءت فشدت على يمين الميدان وعلى يساره، وعلى لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفاتها، ثم قال: للجن عَلَيَّ بأولادكم، فأقامهم - أحسن ما يكون من الشباب - عن يمين الميدان ويساره.

ثم قعد سليمان عليه السلام على كرسيه في مجلسه، ووضع له أربعة آلاف كرسى من ذهب عن يمينه ومثلها عن يساره، وأجلس عليها الأنبياء والعلماء، وأمر الشياطين والجن والإنس أن يصطفوا صفوفا فراسخ، وأمر السباع والوحوش والهوام والطير فاصطفوا فراسخ عن يمينه وشماله، فلما دَنا القوم من الميدان ونظروا إلى ملك سليمان، ورأوا الدواب التى لم تر أعينهم أحسن منها تُروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا ما معهم من الهدايا.

وفي بعض الروايات : إن سليمان لما أمرهم بفرش الميدان بلبنات الذهب والفضة أمرهم أن يتركوا على طريقهم موضعاً على قدر موضع بساط من الأرض غير مفروش، فلما مروا به خافوا أن يتهموا بذلك فطرحوا ما معهم في ذلك المكان، فلما رأوا الشياطين رأوا منظراً هائلاً فظيعاً ففزعوا وخافوا، فقالت لهم الشياطين: سيروا لا بأس عليكم، فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والبهائم والطير

والسباع والوحوش حتى وقفوا بين يدى سليمان، فنظر إليهم سليمان نظراً حسناً بوجه طلق، وكانت قالت لرسولها: إن نظر إليك نظر مغضب فاعلم أنه ملك فلا يهولنك منظره فأنا أعز منه، وإن رأيت الرجل بَشّاً لطيفاً فاعلم أنه نبى مرسل فتفهم القول وَرَدَّ الجواب، فأخبر الهدهد سليمان بذلك على ما تقدم.

وكانت عمدت إلى حقه من ذهب فجعلت فيها درة يتيمة غير مثقوبة، وخرزة معوجة الثقب، وكتبت كتابا مع رسولها تقول فيه: إن كنت نبياً فميز بين الوصفاء والوصائف، وأخبر بما في الحقة، وعرفني رأس العصا من أسفلها، واثقب الدرة ثقباً مستويا، وأدخل خيط الخرزة، واملأ القدح ماءً من ندى ليس من الأرض ولا من السماء، فلما وصل الرسول ووقف بين يدى سليمان أعطاه كتاب الملكة فنظر فيه، وقال: أين الحقة ؟ فأتى بها فحركها، فأخبره جبريل بما فيها، ثم أخبرهم سليمان.

فقال له الرسول : صدقت، فاثقب الدرة، وأدخل الخيط في الخرزة، فسأل سليمان الجن والإنس عن ثقبها فعجزوا، فقال للشياطين: ما الرأى فيها ؟ فقالوا: ترسل إلى الأرضة، فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فِيها حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك ؟ قالت: تَـصيّر رزقي في الشجرة، فقال لها : لك ذلك.

ثم قال سليمان: من لهذه الخرزة يسلكها الخيط ؟ فقالت دودة بيضاء : أنا لها يا نبى الله ، فأخذت الدودة الخيط في فِيها ودخلت الثقب حتى خرجت من الجانب الآخر، فقال لها سليمان: ما حاجتك ؟ قالت تجعل رزقي في الفواكه ، قال : ذلك ذلك.

ثم ميز بين الغلمان والجوارى .

قال السدى : أمرهم بالوضوء ، فجعل الرجل يحدر الماء على اليد والرجل حدرا، وجعل الجوارى يصببن من اليد اليسرى على اليد اليمنى، ومن اليمنى على اليسرى، فميز بينهم بهذا. وقيل: كانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها، ثم تحمله على الأُخرى، ثم تضرب به على الوجه، والغلام كان يأخذ الماء من الآنية

يضرب به في الوجه، والجارية تصب على بطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد، والجارية تصب الماء صباً، والغلام يحدر على يديه، فميز بينهم بهذا.

وروى سعيد بن جبير قال : أرسلت بلقيس بمائتي وصيفة ووصيف، وقالت: إن كان نبيا فسيعلم الذكور من الإناث، فأمرهم فتوضئوا، فمن توضأ منهم فبدأ بمرفقه قبل كفه قال هو من الإناث، ومن بدأ بكفه قبل مرفقه قال هو من الذكور، ثم أرسل العصا إلى الهواء فقال: أي الرأسين سبق إلى الأرض فهو أصلها، وأمر بالخيل فأجريت حتى عرقت وملا القدح من عرقها، ثم رد سليمان الهدية، فروى أنه لما صرف الهدية إليها وأخبرها رسولها بما شاهد، قالت لقومها: هذا أمر من السماء.

الثانية - كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثبت عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أوردها علامة على ما في نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أونبياً، لأنه قال لها في كتابه : " ألا تعلوا على وأتوني مسلمين " وهذا لا تُقبل فيه فدية، ولا يؤخذ عنه هدية، وليس هذا من الباب الذى تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل، وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل، وهى الرشوة التى لا تحل.

وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال، وهذا ما لم يكن من مشرك. فإن كانت من مشرك ففى الحديث " نُهِيت عن زَبَد المشركين " يعنى رَفَدهم وعطاياهم . والمعنى فيها: أنه كان لا يقبل هدية من يطمع بالظهور عليه وأخذ بلده ودخوله في الإسلام، وبهذه الصفة كانت حالة سليمان عليه السلام، فعن مثل هذا نهى أن تقبل هديته حملاً على الكف عنه .

هذه هى الأخلاق القرآنية والتى توجهنا وترشدنا إلى الخلق القويم ، وترك المعاصي والمنكرات والمفاسد ، حتى يستقيم المجتمع ويصلح حاله ، فبعدم قبول الرشوة التى تفسد المجتمع حاكماً ومحكوماً ، وتوكل الحق إلى غير أهله وتفتت فى عضد الأمة وبالرجوع إلى الأخلاق التى يرشدنا إليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نسود ، ونقود ويعم الخير والعدل سائر أرجاء المعمورة .[١]

1 - النكت و العيون للماوردى جـ ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١١ .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٦٧١ .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ، ص ٣٧ .

ابتغاء الرزق عند الله

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة والتى يوجهنا إليها المولى – سبحانه وتعالى- " ابتغاء الرزق عند الله " حيث إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٢] . فالله – سبحانه وتعالى - هو الخالق العليم بأحوال العباد وهوالذى أنشأهم ، وتكفل بأرزاقهم ، وأرزاق كل من خلقه حتى النملة السوداء ، فى الصخرة الصماء . وحين يتخلق الطفل فى رحم أمة ، ويبلغ الطور الذى يرسل الله فيه الملك الموكل ينفخ الروح فيأمره بأن يكتب فى جبهته أربع كلمات " رزقه ، وأجله ، وهل شقى أم سعيد ، فأول كلمة تكتب هى الرزق ، وذلك دليل على أن الله هو المتكفل بأرزاق العباد فالواجب على المسلم أن يبتغى رزقه عند ربه ، متوكلاً عليه – سبحانه وتعالى - والمراد بالشقاوة هى الكفر والعياذ بالله تعالى منه ، وبالسعادة هى الإيمان : يقول – عليه الصلاة والسلام – : " السعيد من مات على الإيمان ، والشقى من مات على الكفر.

وفى هذا المعنى يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٥٠ :١٥١]

روى عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يبايعني على هؤلاء الآيات ثم قرأ : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥١] حتى ختم الآيات الثلاث فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص شيئًا أدركه الله بها في الدنيا كانت عقوبته ومن آخر إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

ويقول صاحب صفوة التفاسير فى معنى هذه الآية آنفة الذكر : " ولا تقتلوا أولادكم خشية الفقر، ويقول ابن الجوزى : " والمراد به دفن البنات أحياء خشية الفقر. فطمأنهم الله – عز وجل – بأن أرزاقهم ، وأرزاق أولادهم عند الله ، فإن الله هوالرزاق للعباد . نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ أي إن رزقكم ، ورزقهم علينا فيجب ابتغاء الرزق عند الله ، لا عند أحد سواه . ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الذاريات:٢٢]

وفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة إبراهيم:٣٢] . والمعنى فأخرج بالمطر من أنواع الزروع ، والثمار رزقاً للعباد يأكلونه .

وفى المعنى نفسه يقول المولى –عز وجل– : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة طه:١٣١ :١٣٢]. أي لا نطلب منك رزقا كما تطلب السادة من العبيد الخراج . والعاقبة الجميلة لمن اتقى الله وأطاعه فإن ما عندهم ينقطع ، وما عند الله دائم لا يفنى : " ما عندكم ينفذ وما عند الله باق " .

ويقول الله – سبحانه وتعالى –: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الشعراء:٧٩] . والمعنى : وهوالله – سبحانه وتعالى – الذى يرزقنى الطعام والشراب ، فهو الخالق الرزاق الذى ساق المزن وأنزل المطر، وأخرج به أنواع الثمرات رزقا للعباد . وفى اللَّطائف : " لم يُشِرْ إلى طعامٍ معهودٍ أوشرابٍ مألوفٍ ولكن أشار إلى

استقلاله به من حيث المعرفة بدل استقلال غيره بطعامهم ، وإلى شراب محبته الذي يقوم بل استقلال غيره بشرابهم .

ومثلها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة العنكبوت:١٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سورة العنكبوت:٦٠]. وقوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [سورة العنكبوت:٦٢]. وأيضا قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الروم:٢٨] . ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الروم:٣٧]. وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة الروم:٤٠]. وأيضا قوله : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سورة سبأ:١٥]. والمعنى : والله لقد كان لسبأ فى موضع سكناهم باليمين والشمال آية عظيمة دالة على الله – سبحانه وتعالى – وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسئ بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا بنعمة الله خرب الله ملكهم ، وشتت شملهم ، ومزقهم شر ممزق ، وجعلهم عبرةً لمن يعتبر ، ثم بين الله تعالى وجه تلك النعمة فقال: جنتان عن يمين وشمال " . يعنى حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه ، والثمار عن يمين الوادى بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك .

يقول قتادة – رضي الله عنه – : " كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار تسر الناس بظلالها ، ولم يرد جنتين ثنتين ، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة ، . قال الزمخشري : وإنما أراد جماعة من البساتين عن يمين بلدتهم ، وأُخرى عن شمالها ،

وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ، كما يكون بلاد الريف العامرة وبساتينها ، أو أراد بستاني كل رجل منهم عن يمين مسكنه وشماله ، و قال ابن زيد : لا يوجد فيها برغوث ، ولا بعوض ، ولا عقرب ، ولا تقمل ثيابهم ، ولا تعيا دوابهم؛ وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار ، وعلى رأسها المكتل ، فيمتلىء ثماراً من غير أن تتناول بيدها شيئاً .

{كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ} : قول الله لهم على ألسنة الأنبياء المبعوثين إليهم ، وروي ذلك مع الأيمان بالله ، أوقول لسان الحال لهم ، كما رأوا نعماً كثيرة وأرزاقاً مبسوطة ، وفيه إشارة إلى تكميل النعمة عليهم ، حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض . {وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ} على ما أنعم به عليكم لقوله تعالى: {بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ} : أي كريمة التربة ، حسنة الهواء،رغدة النعم ، سليمة من الهوامّ والمضار ، {وَرَبٌّ غَفُورٌ}، لا عقاب على التمتع بنعمه في الدنيا ، ولا عذاب في الآخرة ، فهذه لذة كاملة خالية عن المفاسد العاجلة والمآلية .

ولما ذكر تعالى ما كان من جانبه من الإحسان إليهم ، ذكر ما كان من جانبهم في مقابلته فقال : { فَأَعْرَضُواْ } : أي عما جاء به إليهم أنبياؤهم ، وكانوا ثلاثة عشر نبياً ، دعوهم إلى الله تعالى ، وذكروهم نعمه ، فكذبوهم وقالوا : ما نعرف لله نعمة ، فبين كيفية الانتقام منهم .

كما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾ [سورة السجدة:٢٢] فسلط الله عليهم الجرذ فأراً أعمى توالد فيه ، ويسمى الخلد ، وخرقه شيئاً بعد شيء ، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي ، فحمل ذلك السد ، فروي أنه كان من العظم ، وكثر به الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين ، وحمل الجنات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار . وروي أنه لما خرق السد كان ذلك سبب يبس الجنات ، فهلكت بهذا الوجه . ومن هذا المعنى قول الأعشى :

وفي ذاك للمؤتسي أسوة ... مآرب عفى عليها العرم
رجام بنته لهم حمير ... إذا جاش دفاعه لم يرم
فأروى الزروع وأشجارها ... على سعة ماؤه إذ قسم

فـــــصاروا أيــــادي لا يقــــدرو   ن منـــه علـــى شـــرب طفـــل فطـــم

وقال المفسرون / إنها أي هذه البلدة كان إذا مر بها مريض شفاه الله ، وليس بها قمل ، ولا ضفادع ولا حيات لطيب هوائها ، وصفاء جوها ، واعتدال مناخها .

ويقول المولى – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة سبأ:٢٤]. وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة سبأ:٣٦]. ومثلها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة فاطر:٣].

والمعنى : اشكروا ربكم على نعمه التى لا تُعَدّ ولا تُحْصى التى أنعم بها عليكم . يقول الزمخشرى : " ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن به وبالقلب ، وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة مُوليها . ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : اذكر أياديّ عندك أى يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها ، والخطاب عام للجميع لأنّ جميعهم مغمورون في نعمة الله . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : يريد : يا أهل مكة اذكروا نعمة الله عليكم ، حيث اسكنكم حرمة ومنعكم من جميع العالمين ، والناس يتخطفون من حولكم . ومنه : نعمة الله العافية .

" هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ " . وهواستفهام استنكارى بمعنى النفى . يعنى : " لا خالق غيره تعالى ، لا وما تعبدون من الأصنام ، والله– سبحانه وتعالى – هوالمنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهوالذى ينزل المطر من السماء ، ومخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون بعه ما لا يخلق ، ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ . ولهذا يقول الحق – سبحانه وتعالى – : لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ . أي لا رب ولا معبود سوى الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، فكيف تتصرفون بعد هذا البيان والتوضيح ، ووضوح البراهين والأدلة ،

وتجنحون إلى عبادة الأوثان والأصنام والتى لا تنفع ولا تضر، ولا ترزق ولا تعطى ؟ والغرض الأساسي من ذلك هو: التذكير بنعم الله ، ومنحه وعطاياه ، وإقامة الحجة على المشركين .

ويقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : " ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ولهذا قال تعالى : {لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ } أي فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ووضوح هذا البرهان وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة فاطر:١٥] . ومثلها أيضا قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [سورة يس:٣٢ :٣٥]. والمعنى : إن جميع الأمم ماضيها ، وحاضرها ، وآتيها سنحضرهم يوم القيامة بين يدى الله – سبحانه وتعالى - فيجازيهم بأعمالهم خيرها ، وشرها ، ولو أن من أَهْلِك تُرِك لكان الموت راحة له ، وما أحسن قوله :

ولو أنا إذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بعثنا	ونسأل بعده من كل شيء

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾ [سورة هود:١١١] . يقول أبو حيان : " وجاءت هذه الجملة بعد ذكر الإهلاك تبييناً أنه تعالى ليس من أهله يترك ، بل بعد إهلاكهم جمع وحساب وثواب وعقاب ، ولذلك أعقب هذا بما يدل على الحشر من قوله : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة يس:٣٣] وما بعده من الآيات . وبدأ بالأرض ، لأنها مستقرهم ، حركةً وسكوناً ، حياةً وموتاً . وموت الأرض جدبها ، وإحياؤها بالغيث . فتخضر وتنبت ويأكل منها الناس

والأنعام ، ولا يملك ذلك إلاَّ اللّه – سبحانه وتعالى – وذلك آية من آيات اللّه الباهرة الدالة على كمال قدرته ، وعظيم جبروته ووحدانيته .

يقول المفسرون : " موت الأرض بالجدب ، واحياؤها بالغيث فإذا أنزل اللّه عليها الغيث والماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . فكل هذا دليل على أنه واجب على المسلم أن يبتغى الرزق من عند اللّه . وقد ضرب اللّه المثل للبعث والحشر بإحياء الأرض بالنبات فى الكثير من الآيات ، وذلك على أن الرزق هو من عند اللّه الذى يحي الأرض بعد موتها فيجب الاعتماد عليه وطلب الرزق عنده سبحانه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٥٢]. وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة غافر:١٣]، وقوله تعالى : ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الشورى:١٢].

وقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الشورى:١٩]. وأيضا قوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الشورى:٢٧]. ومثل هذه الآيات فى المعنى قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الشورى:٢٩] .وفى نفس المعنى قول الحق – عز وجل – : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة ق:٩:١١]. والمعنى : ونزلنا من السحاب ماءً كثيرا المنافع والبركة فأخرجنا به البساتين الناضرة ، والأشجار المثمرة ، وحب الزرع المحصود ، مثل الحنطة ، والشعير ، سائر الحبوب التى تحصد ، كما أخرجنا شجر النخيل طوالاً مستويات لها طلع منضود منظم بعضه فوق بعض .

يقول أبوحيان : " يريد كثرة الطلع وتراكمه ، أي كثرة ما فيه من الثمر . وأول ظهور الثمر في الكفرى هوأبيض ينضد كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهونضيد ، فإذا خرج من الكفرى تفرق فليس بنضيد . وأنبتنا ذلك كله لا ماء فيها ، ولا زرع فأنبتنا فيها الكلأ والعشب . ومثلما أحييناها بعد موتها كذلك نخرجكم أحياء بعد موتكم .

يقول ابن كثير : " الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى. وهذه المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله تعالى: { لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ }، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الأحقاف:٣٣] . ومثلها قوله تعالى : ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [سورة الذاريات:٥٧:٥٨]. يقول القرطبى لقوله تعالى: " إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ، وقرئ " الرازق ذوالقوة الشديد القوى " . ويقول المفسرون : " إن الله تعالى هوالرزاق المتكفل بأرزاق العباد ، وحاجاتهم ، وأتى باسم الجلالة الظاهر "للتفخيم والتعظيم " ، وأكد الجملة " بإن " والضمير المنفصل لقطع أوهام الخلق فى أمور الرزق ، وليقوى أعتمادهم على الله . وهو ذو القوة والقدرة الباهرة شديد القوة لا يطرأ عليه عجز ، ولا ضعف .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : " وأخبرنا تعالى أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا عمران -يعني ابن زائدة بن نَشِيط-عن أبيه، عن أبي خالد -هوالوالبي-عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله: "يا ابن آدم، تَفَرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنى، وَأَسُدّ فقرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك".

ويقول صاحب اللَّطائف : " قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [سورة الذاريات:٥٦:٥٨] . الذين اصطفُهم في آزالي ، وخصصتُهم - اليومَ - بحسْنِ إقبالي ، ووعدْتُهم جزيلُ أفضالي - ما خَلَقْتُهم إلاَّ ليعبدونِ . والذين سخطت عليهم في آزالي ، وربطتهم - اليوم - بالخذلان فيما كلَّفتهم من أعمالي ، وخَلَقْتُ النارَ لهم- بحُكْم إلهيتي ووجوب حُكْمي في سلطاني - ما خلقتهم إلاَّ لعذابي وأنكالي ، وما أَعْدَدْتُ لهم من سلاسلي وأغلالي . ما أريد منهم أَنْ يُطْعِموا أو يرزقوا أحداً من عبادي فإنَّ الرزَّاقَ أنا . وما أريد أن يطعمون فإنني أنا اللَّهُ { ذُو ٱلْقُوَّةِ } : المـتينُ القُـوَى . قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٥٩]. لهم نصيبٌ من العذابِ مثلَ نصيبِ مَنْ سَلَفَ من أصحابهم من الكفار فَلِمَ استعجالُ العذابِ - والعذابُ لن يفوتَهم؟ لقوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة الذاريات:٦٠]. وهو يوم القيامة .

ومثلها فى المعنى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾[سورة الرحمن:١٠:١٢] . { وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ } أي بسطها ووطأها للأنام ليستقروا عليها ويقتاتوا منها . وفي الأنام ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنهم الناس ، قاله ابن عباس ، وفيه قول بعض الشعراء في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

مبارك الوجه يستسقى الغمام به ... ما في الأنام له عدل ولا خطر

الثاني : أن الأنام الإنس والجن ، قاله الحسن .

الثالث : أن الأنام جميع الخلق من كل ذي روح ، قاله مجاهد ، سمي بذلك لأنه ينام ، قال الشاعر :

جـاد الإلـه أبـا الوليـد ورهطـه ربّ الأنـام وخصـه بسـلام

ونحن نميل إلى هذا الرأى ، وهو أن المراد " بالأنام " كل ما خلقه الله من كل ذي روح وهو الأنسب والمراد .

{ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ } فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن ذات الأكمام النخل ، وأكمامها ليفها الذي في أعناقها ، قاله الحسن .

الثاني : أنه رقبة النخل التي تكمم فيه طلعاً ، ومنه قول الشاعر :

وذات أثـارة أكلـت عليهـا نباتـاً فـي أكمتـة قفـار

الثالث : أنه الطلع المكمم الذي هو كمام الثمرة ، قاله ابن زيد .

الرابع : أن معنى ذات الأكمام أي ذوات فضول على كل شيء ، قاله ابن عباس .

{ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ } أما الحب فهو كل حب خرج من أكمامها كالبر والشعير . وأما العصف ففيه ثلاثة أقاويل :

قال ابن عباس: تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الريح ..

وقيل : أنه الزرع إذا اصفر ويبس .

الثالث : أنه حب المأكول منه ، قاله الضحاك ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥ ﴾ [سورة الفِيل:٥]. وأما الريحان ففيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه الرزق ، قاله مجاهد ، وكقول العرب تقول : خرجنا نطلب ريحان الله أي رزقه ، ويقال سبحانك وريحانك أي رزقك ، وقال النمر بن تولب :

سـلام الإلـه وريحانـه ورخيتـه وسـماء درر

قال الضحاك : ورخيته هي لغة حِمْيَر.

قال ابن عباس: أن الريحان الزرع الأخضر الذي لم يسنبل ..

الثالث : أنه الريحان الذي يشم ، قاله الحسن .

وأما : أن العصف الورق الذي لا يؤكل والريحان هوالحب المأكول .

ومثلها فى المعنى المقصود وهو" ابتغاء الرزق عند الله حيث إنه هوالرزاق ذوالقوة المتين " . قوله – سبحانه وتعالى- : ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الحديد:٢٩] . وقول تعالى : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر:٨]. والمعنى : إنهم خرجوا جهادا فى سبيله يبتغون الرزق والفضل منه – سبحانه وتعالى - .

يقول قتادة – رضي الله عنه - :" المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأهليهم في مكة؛ ومواجهة الحالة كذلك بين المسلمين في المدينة ممن انفصلت علاقاتهم بأسرهم نتيجة لإسلامهم . . وذلك مع تقرير الولاية العامة للنبي صلى الله عليه وسلم وتقديمها على جميع ولايات النسب؛ وتقرير الأمومة الروحية بين أزواجه صلى الله عليه وسلم وجميع المؤمنين : ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [سورة الأحزاب:٦]

لقد هاجرا لمهاجرون من مكة إلى المدينة ، تاركين وراءهم كل شيء ، فارين إلى الله بدينهم ، مؤثرين عقيدتهم على وشائج القربى ، وذخائر المال ، وأسباب الحياة ، وذكريات الطفولة والصبا ، ومودات الصحبة والرفقة ، ناجين بعقيدتهم وحدها ، متخلين عن كل ما عداها . وكانوا بهذه الهجرة على هذا النحو، وعلى هذا الانسلاخ من كل عزيز على النفس ، بما في ذلك الأهل والزوج والولد المثل الحي الواقع في الأرض على تحقق العقيدة في صورتها الكاملة ، واستيلائها على القلب ، بحيث لا تبقى فيه بقية لغير العقيدة . وعلى توحيد الشخصية الإنسانية لتصدق قول الله تعالى : { مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ } . حتى أن الرجل منهم كان ليعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع . ومع ذلك لم يطلبوا الرزق

من أحد غير الله ثقةً منهم فى ربهم – سبحانه وتعالى - فهم يبتغون الرزق والفضل والرضوان منه – عز وجل - .

ويقول صاحب اللطائف : " يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وهو الرزق ، ورضواناً بالثواب فى الآخرة ، وينصرون دين الله – عز وجل - أولئك هم الصادقون ، والفقير الصادق هو الذى يترك كل سبب ، وعلاقة ، ويفرغ فى أوقاته لعبادة الله ، ولا يعطف بقلبه على شيء سوى الله ، ويقف مع الحق راضياً بجريان حكمه فيه .

ومثلها فى المعنى قوله – سبحانه وتعالى - ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الجمعة:١١]. والمعنى : والله خير الرازقين . يقول أهل العلم : وذكر الكلبي وغيره : أن الذي قدم بها دَحِيّة بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعة وغلاء سعر وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بُر ودقيق وغيره فنزل عند أحجار الزيت وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فخرجَ الناس إلا إثنا عشر رجلاً وقيل : أحد عشر رجلاً قال الكلبي وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليها وبقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية رجال .

وروى أنه بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطين يوم الجمعة إذا أقبلت عِير تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع فالتفتوا وانفضوا إليها وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم معه إلاَّ أربعون رجلاً أنا فيهم ، قال : وأنزل الله عز وجل على النبي صلى الله عليه وسلم { وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا } . قال الدار قطني : لم يقل في هذا الإسناد إلا أربعين رجلا غير علي بن عاصم عن حصين وخالفه أصحاب حصين فقالوا : لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا اثنا عشر رجلا وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي نارا .

يقول ابن كثير – رحمه الله تعالى - : " وينبغى أن يعلن أن هذه القضة كانت لما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يقدم الصلاة على الخطبة كما

هو الحال فى العيدين . كما روى أبوداود . قل لهم يا محمد – صلى الله عليه وسلم- " إن ما عند الله من الثواب الجزيل . والأجر العظيم الكبير خير مما أصبتوه من اللَّهو ومن التجارة ، الله – سبحانه وتعالى - خير من رزق وأعطى ، فاطلبوا منه الرزق ، وبه استعينوا لنيل فضله وإنْعَامه .

وفى المعنى نفسه يقول الله – عزوجل - : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة المُلك:١٥]. والمعنى : إن ربكم هو الذى سخر الأرض ، وذللها لكم فجعلها قارة ساكنة ، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال التى تجعلها ثابتة راسخة ، وأوجد فيها من العيون والآبار لسيقيكم ، وسقى أنعامكم ، وزروعكم ، وثماركم وسلك فيها السبل ، فيافروا حيث شئتم من أقطارها ، وتَرَددوا فى أرجائها لأنواع المكاسب والتجارات ، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق ، السعى على الأرزاق لا يتنافى مع التوكل على الله .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لوأنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يَرّزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا " (١) . قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : وليس في هذا الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق لأن الطير إذا غدت فإنما تغدولطلب الرزق وإنما أراد . والله تعالى أعلم . لو توكلوا على الله تعالى في ذهابهم ومجيئهم وتصرفهم ورأوا أن الخير بيده ومن عنده لم ينصرفوا إلاَّ سالمين غانمين كالطير تغدو خماصا وتروح بطانا لكنهم يعتمدون على قوتهم وجلدهم ويغشون ويكذبون ولا ينصحون وهذا خلاف التوكل .

وعن معاوية بن قرة قال : لقى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه - إناسا من أهل اليمن . فقال : ما أنتم قالوا متوكلون . قال : كذبتم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى الأرض وتوكل على الله " . وجاء فى الأسر : " إن الله يحب العبد المؤمن المحترف وفى الآية إيماء إلى ندب التجارة ، والتكسب بجميع

1 رواه احمد

ضروبه وألوانه وفيها تهديد للكافرين كأنه قال لهم : " إنى عالم بسركم وجهركم فاحترسوا من عقابى فهذه الأرض التى تمشون عليها ، وتضربون فى مناكبها ، أنا الذى ذَلَّلتها لكم ، وجعلتها سبباً لنفعكم وإن شئت خَسَفتها بكم ، وأنزلت عليها ألوان من المحن والبلاء .

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ ، يعنى واليه المرجع والمصير يوم القيامة ، فَينبَغى أن تعلموا أن مكثكم فى الأرض ، وأكلكم مما رزقكم الله فيها ، مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله ، ويستيقن أن مصيره إليه ، فاحذروا الكفر والمعاصي فى السر والعلن .

ويقول الله – عز وجل – فى نفس المعنى : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة المُلك:٢١] . والمعنى : بل من ذا الذى يرزقكم إن منع ربكم عنكم أسباب رزقه من الأمطار وغيرها ، أو وقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غوراً ، فلا جند لكم ، ولا ناصر لكم ، ولا معين يعينكم إن هوعذبكم ولا رازق يرزقكم إن هو حرمكم أرزاقكم ، وبعد أن حصحص الحق قال الله تعالى مبيناً عتوهم ، وطغيانهم فقال : ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة المُلك:٢١]. فهم يعلمون ذلك حق العلم ، ويعرفونه حق المعرفة ، ومع ذلك يعبدون غيره ، فما هذا منهم إلا عناد ، واستكبار ، ونفور عن قبول الحق ، وما جرأهم على هذا إلاَّ الشيطان الذى غرهم بوسوسته ، فظنوا أن آلهتهم تنفعهم ، وتدفع الضرر عنهم ، وتقربهم إلى ربهم زلفى . فالقرآن الكريم يوجه المسلمين ويرشدهم إلى أنه من الواجب ابتغاء الرزق من الله فلا رازق سواه ، ولا معبود غيره ،

هذا يجعل المسلم واثقاً فى وعد ربه ، كما أن ذلك يربى فيه العزة والكرامة وأن يأخذ المال باستشراق نفس ، وشمم وآباء ، وبذلك يبارك الله له فيه ، ويحظى باحترام الناس فى الدنيا ، وبالأجر الجزيل من الله فى الآخرة . (١)

1 - تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ١٨٧ بتصرف .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ١٢٦ بتصرف .
- ذاته ص ١٣٩ .
- ذاته ص ٣٧٢ .
- ذاته ص ٣٨٧ .
- ذاته ص ٥٠٢ .
- زاد المسير لابن الجوزى جـ ٣ ، ص ١٤٨ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٩٨ .
- ذاته جـ ١ ، ص ٤٢٨ .
- ذاته ص ٣٨٤.
- تفسير المراغى جـ ٦ ، ص ١٦٧.
- ذاته جـ ٨ ، ص ٥ و ما بعدها .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ١٥.
- ذاته ص ٢٠ و ما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ص ٢١٦ .
- ذاته ص ٤٧٠.
- ذاته ٥٦٠ ، ذاته جـ ١٧ ص ٥٦ .
- تفسير القرطبى جـ ١٨ ، ص ١٩ بتصرف .
- تفسير البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٣٣٥.
- حاشية شيخ على البيضاوى جـ ٣ ، ٨٥ .
- الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ، ص ٤٥٤ .
- ذاته ص ٤٧١.
- النكت و العيون جـ ٥ ، ص ٤٢٥ وما بعدها .

الإصلاح

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة " الإصلاح " حيث إن الإصلاح يعود بالخير على المسلمين ، وعلى الناس قاطبةً ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة البقرة:١٨٢]. والمعنى : فمن علم أوظن من الموصى ميلاً عن الحق بالخطأ ، أوميلاً عن الحق عمداً فأصلح بين الموصى ، والموصى له فلا ذنب عليه بهذا التبديل ، إن الله واسع المغفرة والرحمة لمن قصد بعمله الإصلاح .

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [سورة البقرة:٢٢٤]. والمعنى : ولا تجعلوا الحلف بالله سبباً مانعاً عن فعل الخير ، وأريد باليمين بأن يقول أحدكم : " قد حلف بالله ألا أفعله ، وأريد أن أُبَرّ بيمينى ، بل أفعلوا الخير وكفروا عن أيمانكم ، وقيل المعنى : " لا تتكثروا الحلف فتجعلوا الله هدفا لأيمانكم تبتذلون اسمه الأعظم فى كل شيء قليل أوكثير ، عظيم أوحقير إرادة أن تبرزا ، وتتقوا ، وتصلحوا فإن الحلاف لا يكون بَراً ولا تَقياً .

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما - :" لا تجعلن الله عرضة يمينك أن لا تصنع الخير ، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير ، ولا تجعلوه تعالى سبباً مانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، وقد نزلت هذه الآية فى عبد الله بن رواحة حين حلف ألاَّ ختنته يعنى : صهره " النعمان بن بشير " – رضي الله عنهم - ولا يصلح بينه وبين أخته ، والله سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم .

ومثلها قول الحق – عز وجل - : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النساء:٣٥] . وقوله تعالى : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ [سورة النساء:٨٥]. وأيضا قول الله – سبحانه وتعالى - : ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سورة النساء:١١٤]. وقوله تعالى : ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة النساء:١٢٨]. وأيضا قول الحق – سبحانه وتعالى ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة النساء:١٢٩].

وفى المعنى ذاته يقول المولى – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة الأعراف:٣٥]. والمعنى : يا بنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم من البشر يتلون عليكم آياتى التى أنزل عليكم لبيان ما آمركم له من صالح الأعمال ، وترك ما نهاكم عنه من الشرك ، والرذائل ، وقبيح الأعمال ، فمن أتقى منكم ما نهيته ، وأصلح نفسه بفعل ما أوجبته عليه فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، ولا هم يحزنون حين الجزاء على ما فاتهم ، والحكمة فى كون الرسل منهم ، أن ذلك يقطع أعذارهم ، ويبطل حجتهم ، بل ذلك أظهر فى الحجة عليهم حيث إن معرفتهم بأحوال نيتهم لهم ذلك أن المعجزات التى ظهرت على يديه إنما هى بقدرة الله .

وليس بقدرته هو إلى ما فى ذلك من حصول الأُلفَة ، فالجنس يألف الجنس ويركن إليه ، ومن ثم قال الله – سبحانه وتعالى – : " وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا " . ومنها قوله تعالى : ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة الأعراف:١٤٢]. ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الأنفال:١]. والمعنى : يسألونك أيها النبي – صلى الله عليك وسلم – عن الأنفال لمن هى ؟ أهى

للشبان ؟ أم للشيوخ ؟ أم للمهاجرين ؟ أم للأنصار ؟ أن أنها لهم جميعا ؟ . فقل لهم – صلى الله عليك وسلم - إن الانفال لله يحكم فيها بحكمه ، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى وقد قسمها – صلى الله عليه وسلم - بالسوية ، وبالحق والعدل المطلق ، والذى لا يرتاب فيه أحد . وقد بَيَّن الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله ، ثم بين مصارفها ، وكيفية قسمتها .

وفى قوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٤١]. والمعنى : وللإمام أن ينفل من شاء للجيش ما شاء قبل التحميس ، وقد روى عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر، وَقُتل أخي عُمَيْر، وَقَتَلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى " ذا الكتيفة " ، فأتيت به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "اذهب فاطرحه في القَبَضْ" . قال : فرجعت وبي ما لا يعلمه إلاَّ الله من قتل أخي وأخذ سيفى . قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اذهب فخذ سيفك " .

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ . يعنى : فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع ، والاختلاف الموجب لسخط الله لما فيه من المضار ولاسيما فى حال الحرب . وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال أُلْفَة ومحبة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعا وعليه تتوقف قوة الأمة ، وعزتها ، وبه تحفظ وجدتها .

روى عن عبادة بن الصامت: نزلت فينا معاشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإصلاح ذات البين،

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إنه قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عُمَير، وقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وأتيت به رسول الله صلى

الله عليه وسلم واستوهبته منه فقال: هذا ليس لي ولا لك اطرحه في القَبَضْ، وهو بفتحتين: ما قبض من الغنائم فطرحته، وبي ما لا يعلمه إلا الله تعالى من قتل أخي وأخذ سيفى، فما جاوزت إلاَّ قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « سألتني السيف وليس لي وإنه قد صار لي اذهب فخذه » وقيل: إنها نزلت فيما يصل من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من عبد أو أمة أو متاع، فهو للنبيّ صلى الله عليه وسلم يصنع فيه ما يشاء.

وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما يأمر به أو نهياً عنه ، وَيُقضى به ، ويحكم فيه ، فالله تعالى مالك أمركم والرسول مُبَلّغ عنه ، ومبين نواهيه بالقول والفعل والحكم . وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة فى الآخرة ، والفوز بثوابها ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – يطاع فى اجتهاده أمر الدنيا المتعلقة بالمصالح العامة ، ولاسيما فى الشئون الحربية لأنه القائد العام للقوات المسلحة الإسلامية فمخالفته تخل بالنظام ، وتؤدى إلى الفوضى التى لا تقوم للأمة معها قائمة ، وللأئمة المسلمين من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع ، وأدارة شئون الأمة ، وقيادة الجُند ما كان له – صلى الله عليه وسلم – بشرط عدم معصية الله تعالى ، ومشاورة أُولى الأمر ، ثم بينه الله – سبحانه وتعالى – للمؤمنين فيقول لهم . هذه التوجيهات الراشدة ، والأخلاق القرآنية الكريمة يجب عليكم أن تنفذوها إن كنتم مؤمنين كاملى الإيمان . فإن كنتم كاملى الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ، إذ كما له يقتضى ذلك لأن الله أوجبه ، فالمؤمن بالله حقاً يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصي إلاَّ أن يعرض له ما يغلبه عليه أحيانا من ثورة شهوة أو ثورة غضب ، ثم لا يلبث أن يفئ إلى أمر الله ، ويتوب إليه مما عرض له .

ويقول الله تعالى أيضا : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة هود:٨٨]. والمعنى : إن المراد بالظلم هوالشرك أي أنه تعالى ليس من سنته أن يهلك القرى بشرك أهلها ما داموا مصلحين فى أعمالهم الاجتماعية والعمرانية ، والمدنية فلا

يبخسون الناس حقوقهم مثل ما فعل قوم " شعيب " . ولا يبطشون بطش الجبارين كقوم هود ، ولا يُذَلّون لمتكبر جبار كقوم فرعون ، ولا يرتكبون الفواحش ويقطعون السبيل ويأتون المنكر مثل قوم لوط ، بل لابد أن يضموا إلى الشرك الإفساد فى الأعمال والأحكام ، ويفعلوا الظلم المدمر للعمران .

ومن ثم قالوا : " إن الأمم تبقى مع الكفر ،ولا تبقى مع الظلم وَالجَور، ويؤيد هذه ما أخرجه " الطبري والديلمى وابن مردويه عن جرير بن عبد الله قال : "سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم - يسأل عن تفسير هذه الآية فقال : "وأهلها ينصف بعضهم بعضا " . وكان الشرك ظلماً للنفس ، وللغير لذلك يقول الله – سبحانه وتعالى - فى آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٢:١٣].

ويقول الله – سبحانه وتعالى - أيضا : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة القصص:٨٣]. والمعنى : تلك الدار العالية الرفيعة التى سمعت خبرها ، وبلغت وصفها هى دار النعيم الخالد السرمدى ، والتى فيها ، لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطرت على قلب بشر، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر، ولا الطغيان فى هذه الحياة الدنيا ، والعاقبة المحمودة للذين يخشون ربهم ويراقبونه ويبتغون رضوانه ، ويحذرون عقابه ، والمراد بقوله : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ . أي يبغون الإصلاح بين الناس أجمعين فبذلك ينشرون الفضيلة ، ويحاربون الرذيلة ، فبالإصلاح بين الناس وبين كل مسلم ، وهجيراه وطبيعته وخلقه الذى عُرِف به .

هذه أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ومثلها قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحُجُرات:٩:١٠]. والمعنى : إنهم منتسبون جميعاً

للإيمان الذى يوجب السعادة الأبدية ، وفى الحديث : "عن أبوهريرة – رضي الله عنه – : أَنَّ رسولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قال: « إِيَّاكُم والظَّنَّ ، فإِنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ ، ولا تَحَسَّسُوا ، ولا تَجسَّسُوا ، ولا تَنَافسُوا ، ولا تحاسَدُوا ، ولا تَبَاغضُوا ، ولا تَدَابَروا ، وكُونوا عبادَ اللهِ إخواناً كما أمرَكُم ، المسلم أخوالمسلم ، لا يظلِمُهُ ، ولا يَخْذُلُهُ ، ولا يَحْقِرُهُ. التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا، التقوى هاهنا – ويشير إلى صدره – بِحَسْب امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِر أخاه المسلمَ ، كلُّ المسلمِ على المسلم حَرَام : دمُهُ ، وعِرْضُهُ ، ومَالُهُ. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ».

وفى الصحيح أيضاً : " إذا دَعى المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب : " قال الملك : " آمين ولك بمثله ، ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ، ولا يَدّ تسبب عن ذلك قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب . واتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين ، رجاء أن يرحمكم ربكم ، ويصفح عن سالف إجرامكم إذا انتم أطعتموه ، واتبعتم أمره ونهيه .

يقول صاحب اللَّطائف : " إيقاعُ الصلح بين المتخاصمين مِنْ أوْكَد عزائم الدِّين . وإذا كان ذلك واجباً فإنه يدل على عِظَمِ وزر الواشي والنمام؛ والمصْدَرِ في إفساد ذات البَيْن .(ويقال إنما يتم ذلك بتسوية القَلب مع الله فإن الله إذا علم صِدْق هِمةِ عبدٍ في إصلاح ذات البيْن) فإنه يرفع عنهم تلك العصبيَّة .

فأما شرط الأخوة : فمِنْ حقِّ الأُخوةِ في الدِّين ألا تحوِجَ أخاك إلى الاستعانة بك أوالتماس النصرة عنك ، وألا تقصر في تَفَقُّد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مساءلتك . ومن حقِّه ألا تلْجئه إلى الاعتذار لك بل تبسط عُذرَه؛ فإنْ أُشْكِل عليكَ وَجْهُه عُدْت باللائمة على نفسك في خفاء عُذرِه عليك ومن حقه أنْ تتوبَ عنه إذا أذنبَ ، وتَعودَه إذا مرض . وإذا أشار عليك بشيءٍ فلا تطَالبْه بالدليل عليه وإبراز الحُجَّة – كما قالوا :

إذا اسْتَنْجِدُوا لم يسألوا مَنْ دعاهم ... لأيَّةِ حَرْبٍ أم لأي مكان

ومِنْ حقِّه أَنْ تَحفَظَ عَهْدَه القديم ، وأَنْ تُراعِيَ حقَّه في أهله المتصلين به في المشهد المغيب ، وفي حال الحياة وبعد الممات - كما قيل :

وخليـــــل إن لــــم يكـــــن منــــصفاً كُنْــــتَ منــــصفا

تتحــــسَّى لــــــه الأمَــــرَّ يْــــن وكُــــنْ ملاطفـــــا

إنْ يَقُـــل لــــكَ اســـتواحترفْ ت رضًــــــى لا تكلُّفـــــا [(1)]

1- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ١١٩ .

- ذاته ص ١٤٢ ، ذاته جـ ٢ ، ص ٤٤٧ و ما بعدها بتصرف .
- تفسير المراغى جـ ٣ ، ص ١٤٤ بتصرف .
- ذاته ص ١٦٢ و ما بعدها .
- ذاته حـ ٤ ، ص ٩٧ و ما بعدها .
- المراغى جـ ٩ ص ١٣١ و ما بعدها .
- لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ، ص ٤٤١ و ما بعدها .

الإحسان للوالدين

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة التى يوجهنا إليها ربنا – عز وجل – الإحسان إلى الوالدين ، والترفق بهما طوال حياتنا قال تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ [سورة الإسراء:٢٤]. والإحسان للوالدين إليهما بعد الممات ، فقد سأل اعرابى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قائلاً : لى أبوان كنت اكرمهما حال حياتهما ، وهما قد ماتا ألهُما عَلَيَّ طاعة بعد الموت ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : نعم ، قال : ما هى . قال – صلى الله عليه وسلم – : الدعاء لهما ، والاستغفار لهما ، والتصدق باسمهما ، وصلة من كان يصلان أثناء الحياة .

وفى هذا المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – :﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٨٣]. والمعنى : الذى تتغياه من الآية هوالإحسان للوالدين ، وذلك فى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا ﴾ . أي : وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، وذلك حين أخذ الله الميثاق على بنى إسرائيل أي على أسلافهم فى العهد المؤكد بألاَّ يعبدون إلاَّ الله وبالوالدين إحسانا ،

ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. والمعنى : واعبدوا الله ووحدوه وعظموه ، ولا تشركوا به أحد ولا شيئا من الأشياء صنماً أو غيره ، واستوصوا بالوالدين بِراً ، وإنعاماً ، وإحساناً ، وإكراماً .

ومثلها قول المولى - عز وجل - ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٥١]. والمعنى : قل يا محمد - صلى الله عليه وسلم - تعالوا أقرأوا الذى حرم ربكم عليكم باليقين لا الظن والتخمين ، الا تعبدوا معه غيره ، وأحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، وذكر ضمن المحرمات ، لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده ، فكأنه قال : " ولا تسيئوا إلى الوالدين " .

يقول أبوالسعود فى تفسيره : " والسر فى ذلك المبالغة والدلالة على أن ترك الإساءة إليهما غير كافٍ فى قضاء حقوقهما " . ويقول الحق - سبحانه وتعالى - أيضا :

﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٢٣:٢٤]. والمعنى :وأمر ربك ألاّ تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، لا تليق إلا بمن له الإنعام ، والأفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو، وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ، ليكون الله معكم .

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة النحل:١٢٨]. وقد أمر - سبحانه وتعالى - بالإحسان إليهما لشفقتهما على الولد ، وبذل الجهد فى إيصال الخير إليه ، وإبعاد الضرر عنه ، ولأن الولد قطعة من الوالدين كما جاء فى الخبر أنه - عليه الصلاة والسلام - قال : " فاطمة بضعة منى " ، ولأنهما أنعما عليه وهو فى غاية الضعف ونهاية العجز ، فوجب أن يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما . كما يقول الشاعر العربى يعدد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

فروي أن شيخاً أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : إن ابني هذا له مالٌ كثير وإنه لا ينفق عليَّ من ماله ، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال : إن هذا الشيخَ قد أنشأ في ابنه أبياتاً ما قُرِع سمعٌ بمثلها فاستنشَدَها الشيخَ فقال :

غـذَوتُك مولـوداً ومُنْتُـك يافعـا	تَعُلُّ بمـا أَجنـي عليـك وتنهـل
إذا ليلةٌ ضافتْك بالـسُّقم لـم أبِـت	لـسُقمك إلا باكيـاً أتملمـل
كأني أنا المطروقُ دونـك بالـذي	طُرِقَتْ به دونـي وعينَـي تهمُـل
فلما بلغـتَ الـسنَّ والغايـةَ التـي	إليها مدى ما كنـتُ فيـك أؤمـل
جعلتَ جزائـي غِلظـةً وفظاظـة	كأنـك أنـت المـنعمُ المتفـضّل
فليتك إذْ لـم تـرْعَ حـقَّ أُبـوتي	فعلتَ كما الجارُ المجـاورُ يفعـل

فغضب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أنتَ ومالُكَ لأبيك » .

أجل : إنه لا نعمه تصل الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ، ثم نعمة الوالدين ومن ثم بدأ بشكر نعمته أولاً فقال : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا . ثم افردها بشكر نعمة الوالدين بقوله – سبحانه وتعالى – : " وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا " .

ويقول الله– سبحانه وتعالى – فى نفس المعنى : ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [سورة الكهف:٨١:٨٢]

والمعنى : قال هذا العالم : أردنا أن يرزق الله هذين الأبوين ولداً صالحاً يكون خيراً من هذا الولد ديناً وصلاحاً ، وأقرب عطفاً ورحمةً وبراً بأبويه ، وشفقةً عليهما ، وإن الداعى إلى إقامة الجدار أنه كان تحته كنز ، وكان ليتيمين فى المدينة، وكان أبوهما أمرا صالحاً ، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز على ذينك اليتيمين رعايةً لحقهما ، ولصلاح أبيهما ، فأمرني بإقامة الجدار لذلك الأمر، إذ لو سقط الجدار

لضاع الكنز، وقد كان مشرفاً على السقوط ، وما فعلت الذى رأيتني فعلت أفعله عن رأيي ، ومن تلقاء نفسي ، بل فعلته عن أمر الله اياى به ، لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا تجوز إلاَّ بالوحي والنص القاطع ، وهذا الذى ذكرت لك من الأسباب التى من أجلها فعلت الأفعال التى استنكرتها ، وهو بيان ما تؤول إليه الأفعال التى ضقت بها ذرعاً ، ولم تصبر حتى أخبرك بها ابتداءً .

ويقول الحق– سبحانه وتعالى-:﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾ [سورة مريم:١٤]. والمعنى : أي كان كثير البر بهما والإحسان اليهما والحدب عليهما بعيدا عن عقوقهما قولاً وفعلاً ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى مرتبة طاعته فقال : " ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾ . ولم يكن جباراً ولا متكبراً على الناس ولا مخالفاً لما أمره به ربه .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى -:﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴾ [سورة مريم:٣٢]. والمعنى وجعلني ربى – سبحانه وتعالى - { وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي } ، مطيعاً لها محسناً ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنهما ، إذ لو يكن الأمر كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمهما ، ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته ، ولا شقياً بعقوق والدتي وعدم برها .

ومثل الآيات آنفة الذكر قول الحق – سبحانه وتعالى - : ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [سورة العنكبوت:٨]. والمعنى : أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان ، الوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق . يقول الصاوى : " وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد جبلُوُا على القسوة ، وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم ، والآباء مجبولون على الرحمة والشفقة بالأولاد فوكلهم لما جبلوا عليه .

وفــى قولــه تعــالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة لقمان:١٥].

والمعنى : أمرناه بالإحسان إليهما لاسيما الوالدة حيث حملته جنينا فى بطنها ، وهى تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حملها له حتى الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت بها ثقلاً وضعفاً ، وفطامه فى تمام عامين ، ثم قلنا له : اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ، حيث إن المصير والمرجع إِلَىَّ فأجازى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته .

يقول ابن جنرى : " وقوله : " أن اشكر " . تفسيراً للوصية ، و" وفصاله فى عامين " ، ليبين ما تكابده الأم بالولد ما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب ، وإن بذلا جهدهما وأقصى ما فى وسعهما ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وصاحبهما فى الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما . ولو كانا مشركين . لأن كفرهما بالله لا يستدعى ضياع المتاعب التى تحملاها فى تربية الولد ، ولا التنكر بالجميل ، واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة ، والعمل الصالح ، حيث إن مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين ضمن وصايا " لقمان " هو تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك " إن الشرك لظلم عظيم " . فكأنه يقول : " مع أننا وصينا الإنسان بوالديه ، وأمرناه بالإحسان إليهما فقد نهيناه عن طاعتهما فى حالة الشرك والعصيان ، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو فى نهاية القبح والشناعة ،

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ

أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:١٥:١٦]. والمعنى : أمرنا بالإحسان إليهما ، والحنو عليهما ، والبر بهما فى حياتهما ، وبعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، خص الأم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم ، وقد قاست فى حمله المشقة والتعب من " وحم " وغثيان ، وثقل إلى نحوذلك مما ينال الحوامل، كما أنها قاست فى وضعه المشقة من تعب الطلق ، وألم الوضع ، وكل هذا يستدعى البر بها ، واستحقاقها للكرامة ، وجميل الصحبة ، ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً تكابد فيها الآلام الجسمية والنفسية فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيف كل شئونه بلا ضجر ، ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أوناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته ،

وفى الآية إيماء إلى أن أقل مدة للحمل " ستة أشهر " لأن أكثر مدة للإرضاع حولان كاملان ، لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾[سورة البقرة:٢٣٣] . فلم يبق للحمل إلاَّ ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل ، وأكثر الإرضاع وأول من استنبط هذا الحكم منهما " الإمام عَلِيٌّ – كرم الله وجهه – ووافق عليه عثمان وجمع من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – .

حتى إذا اكتمل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته ، وعقله ، وهى فيما بين الثلاثين والأربعين ، وهذا نهاية استحصاد العقل ، واستكماله ، ومن ثم روى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : " من أتى عليه الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار" . ولهذا قيل :

إذا المرأ وافى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذي مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقيل : لم يبعث نبي إلا بعد الأربعين ، وذهب الفخر إلى خلافه مستدلاً بأن عيسى ويحيى عليهما السلام أرسلا صبيين لظواهر ما حكي في الكتاب الجليل عنهما ، وهو ظاهر كلام السعد حيث قال : من شروط النبوة الذكورة وكمال العقل

والذكاء والفطنة وقوة الرأي ولو في الصبا كعيسى ويحيى عليهما السلام إلى آخر ما قال . وقيل أنه دعا قائلاً : رب وفقني لشكر نعمتك التى غمرتني بها فى ديني ودنياي، بما أتمتع به من سعة فى العيش ، وصحة فى البدن ، وأمن مودة للإخلاص لك ، وإتباع أوامرك ، وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والدي من الحنان علي حين ربياني صغيرا ، واجعل عملي وفق رضاك ، لأنال مثوبتك وأجعل الصلاح ساريا فى ذريتي ، متمكناً من نفوسهم ، راسخا فى قلوبهم .

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " أجاب الله دعاء أبى بكر – رضي الله عنه – فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال ، وعامر بن فهيرة " . ولم يرد شيئاً من الخير إلاَّ أعانه عليه ، ودعا فقال : " أصلح لى فى ذريتي " . فأجابه الله – سبحانه وتعالى – ، فلم يكن له ولد إلاَّ آمنوا جميعا ، فأجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبوعتيق النبي – صلى الله عليه وسلم – وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة – رضي الله عنهم أجمعين – ، وأنى تبت إليك من ذنوبي التى فَرَطَت منى فى أيامى الخوالي ، وأنى من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك . هذا هو الخُلق القرآني الكريم والسنة المطهرة . (١)

1- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٧٤ .
- ذاته ص ٢٧٥.
- تفسير أبو السعود جـ ٢ ، ص ١٤٦ .
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٣٣ - ٣٤ .
- ذاته جـ ٦ ص ٨ - ٩ ، ص ٤٨ - ٤٩ .
- ذاته جـ ٩ ، ص ١٧ – ٢٠ .
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٣ ، ص ٢٣١ .
- التسهيل فى علوم التنزيل لابن جزى جـ ٣ ، ص ١٢٦ .

الإحسان للأقارب

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة الإحسان للأقارب لأنهم أولى بالمعروف والإحسان ، والإكرام ، والمساعدة ، ومديد العون إليهم ، والأخذ بأيديهم إلى طرائق النجاة ، فإنه إحسان ، وصلة للقربى وتقوية ما بينهم من وشائج وامشاج . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [سورة البقرة:٨٣]. والمعنى : اذكروا يا معشر اليهود العهد المؤكد غاية التأكيد بأن لا تعبدوا غير الله ، وأمرناهم بأن يحسنوا إلى الوالدين إحسانا ، وأن يحسنوا أيضاً إلى الأقرباء لأنهم أولى من غيرهم بالحنو، والعطف ، والصلة ، والشفقة ، والرحمة .

يقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة النساء:٨]. وقوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. والمعنى : وإذا حضر قسمة التركة الفقراء من قرابة الميت من غير الوارثين فأعطوهم شيئاً من هذه التركة تطييباً لخاطرهم ، واقتلاعاً لما فى أنفسهم من حقد أوحسد ، أوغل أوكراهية ومع ذلك العطاء قولوا لهم قولاً معروفاً حسناً طيباً فالكلمة الطيبة صدقة وثواب .

ويقول المراغى فى تفسيره : " والمراد بذوي القربى من لا يرث منهم مثل : الأخ لأب ، مع الأخ الشقيق ، والعم مع الأب . يعنى إذا حضر قسمة التركة أحد من ذوى القربى للوارثين فانفعوهم بشيء من الرزق الذى جاءكم من غير كد ولا نصيب، فلا ينبغي أن يبخلوا به على المحتاجين من ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وتركوهم يذهبون منكسرى القلب ، مضطربى النفس وقولوا لهم قولاً مطيب به نفسهم عندما يعطون حتى لا ينقل على أبى النفس منهم ما يأخذ ، ويرضى الطامع

فى أكثر مما أخذ بما أخذ بالتودد والتلطف فى القول ، وعدم التغليظ فيه . والسر فى إعطائهم شيئا من التركة أنه ربما يسرى الحسد إلى نفوسهم ، فينبغي التودد إليهم ، واستمالتهم وذلك بإعطائهم قدرا من هذا المال هبةًأوهديةً أو إعداد طعام لهم يوم القسمة ، ليكون فى هذا صلةً للرحم وشكر للنعمة .

يقول " سعيد بن جبير " : وهذا الأمر وهو أمر إعطاء ذوى القربى للوجوب ، وقد هجره الناس كما هجروا العمل بالاستئذان عند دخول البيوت . ويقول الحسن والنخعى : " إن ما أمرنا أن نرزقهم منه عند القسمة هو الأعيان المنقولة وأما الأرضون ، والرقيق وما أشبه ذلك فلا يجب أن يعطوا منها شيئاً بل يكتفى حينئذ بقول المعروف ، أو بإطعام الطعام .

قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. فإذا أدى المسلم حقوق الله صحت بذلك عقيدته وصلحت أعماله ، وإذا قام بحقوق الوالدين صلح البيت ، وحسن حال الأسرة وصارت قوة فى المجتمع المسلم ، فإذا ما عاود القربى الذين ينسبون إليه كان لكل منهم قوة أُخرى تتعاون مع هذه الأسرة ، وبذلك تتعاون الأمة جمعاء ، وتمد يد العون لمن هو فى حاجة إلى مساعدة ممن ذكروا بعد ذلك من اليتامى والمساكين ، ومثلها قول الله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٤١]. يقول الخازن : { وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ } يعني أن سهماً من خمس الخمس لذوي القربى وهم أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلفوا فيهم فقال قوم هم جميع قريش وقال قوم هم الذين لا تحل لهم الصدقة وقال مجاهد وعلي بن الحسين : هم بنو هاشم . وقال الشافعي رحمه الله تعالى : هم بنوهاشم وبنو المطلب وليس لبني عبد شمس ولا لبني نوفل منه شيء وإن كانوا إخوةً

ويدل عليه ما روي عن جبير بن مطعم « قال جئت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم » إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد

« وفي رواية : » أعطيت بني المطلب من خمس الخمس وتركتنا « وفي رواية قال جبير : ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس ولا لبني نوفل شيئاً أخرجه البخاري وفي رواية أبي داود » أن جبير بن مطعم جاء هو وعثمان بن عفان يكلمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقسم من الخمس في بني هاشم وبني المطلب فقلت يا رسول الله قسمت لإخواننا بني المطلب ولم تعطنا شيئاً وقرابتنا وقرابتهم واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما بنوهاشم وبنو المطلب شيء واحد

« وفي رواية النسائي قال لما كان يوم خيبر رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ذوي القربى في بني هاشم وبني المطلب وترك بني نوفل وبني عبد شمس فانطلقت أنا وعثمان بن عفان حتى أتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله هؤلاء بنوهاشم لا ننكر فضلهم للموضع الذي وضعك الله به منهم فما بال إخواننا بني المطلب أعطيتهم وتركتنا وقرابتنا واحدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا وبنو المطلب لا نفترق في جاهلية ولا إسلام وإنما نحن وهم شيء واحد وشبك بين أصابعه واختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا فذهب أكثرهم إلى أنه ثابت فيعطي فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس للذكر مثل حظ الأنثيين وهوقول مالك والشافعي وذهب أبوحنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت قالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم وسهم ذوي القربى مردود في الخمس فيقسم خمس الغنيمة على ثلاث أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى وكذا الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى ولا يفضلون فقيراً على غني ، لأن

النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد قال ويفضل الـذَّكَرَ على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهماً .

ويقول – سبحانه وتعالى - : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [سورة النحل:٩٠]. والمعنى : وإيتاء ذي القربى ويأمر بصلة الرحم ، وهم القرابة الأدنون ، والأبعدون منك فيستحب أن تصلهم من فضل ما رزقك الله ، فإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى - فى نفس المعنى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٢٦]. والمعنى : قيل إن الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم - فإن الله أمره أن يؤتى أقاربه حقوقهم من صلة الرحم ، والمودة ، والزيارة ، وحسن المعاشرة ، والمؤالفة علة السراء ، والضراء ، والمعاضدة . وقيل : أعط كل من له قرابة بك حقه من البر والإحسان . ومثلها قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الروم:٣٨]. والمعنى : وأعط القريب حقه من البر والصلة والإحسان ، والشفقة ، والرحمة ، والعطف والزيارة .

ويقول صاحب اللَّطائف : " القرابةُ على قسمين : قرابةُ النسب وقرابة الدِّين ، وقرابةُ الدين أَمسُّ ، وبالمواساة أحقٌّ وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة ، غيرَ متفرِّغ لطلب المعيشة فالذين لهم إيمانٌ بحاله ، وإشرافٌ على وقته يجب عليهم القيام بشأنه بقَدر ما يمكنهم ، مما يكون له عونٌ على الطاعة وفراغ القلب من كل علة؛ فاشتغال الرجل بمراعاة القلب يجعل حقَّه آكدَ ، وتَفَقُّدَه أَوْجَبَ .

وقوله تعالى: { ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ } : المريدُ هوالذى يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه؛ فإيثارُ المريد وَجه اللَّهِ أتمُّ من مراعاته حال نفسه ، فهِمَّتُه في

الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين تتقدم على نَظَرِه لِنَفْسِه وعياله وما يهمه من خاصته .

ومثلها قوله- سبحانه وتعالى-: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الطور:٢٦]. يقول ابن كثير- رحمه الله تعالى - : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الطور:٢٦] أي: قد كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الطور:٢٧]أي: فتصدق علينا وأجرنا مما نخاف.وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله -عز وجل- فغفر لنا".

وفى المعنى ذاته قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر:٧].والمعنى : ما جعله الله غنيمة لرسوله بدون قتال من أموال الكفار. يقول ابن عباس – رضي الله عنهما - : " قال ابن عباس هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة { فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ } يعني بني هاشم وبني المطلب {وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ } قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هوللأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هولمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

قال صاحب التسهيل : " ولا تعارض بين هذه الآية وآية الأنفال ، فإن آية الأنفال فى حكم الغنيمة التى تؤخذ بالقتال وايجاف الخيل والركاب ، فتلك يؤخذ منها الخُمْس ويقسم الباقى على الغانمين . وأما هذه ففى حكم الفيء وهو ما يؤخذ من الكفار من غير قتال فلا تعارض بينهما ولا نسخ .

هذه هى حقوق الأقارب وهى خُلُق مِن الأخلاق القرآنية والتى يوجهنا إليها الله – سبحانه وتعالى – فى كتابه العزيز فلو ان المسلمين استمسكوا بها ، وحافظوا عليها ، ورعوها حق رعايتها لسادوا فى الدنيا ، وفازوا فى الآخرة برضون الله وينالون ثوابه وجناته التى أعدها لأمثالهم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . (١)

1 صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٧٤ .

الإحسان لليتامى

ومن الأخلاق القرآنية ، والسنة النبوية المطهرة الإحسان لليتامى حيث إن اليتيم الذى فقد أبواه ، أو إحدى أبويه فى مسيس الحاجة إلى العطف ، والرعاية لتعويضه الحنان الذى افتقده بفقده لأبويه أو أحد أبويه ، الأب أو الأم . يقول – صلى الله عليه وسلم – أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وأشار بالسبابة والإبهام " . والذى يمسح على رأس يتيم يكون له بعدد شعره حسنات . هكذا يوجهنا القرآن الكريم ، وأيضا النبوة الزاكية المطهرة .

يقول الله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ [سورة الضُّحى:٩]. ويقول الله تعالى فى الإحسان لليتامى : ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ۝٨٣﴾ [سورة البقرة:٨٣].

والمعنى : وأن يحسنوا إلى الأقرباء ، وقولوا لهم قولاً حسناً وذلك بخفض الجناح والكلمة الطيبة ، ومع لين الجانب وكذلك اليتامى الذين آباؤهم وهم صغار ، فأحسنوا إليهم بالرعاية والعطف والرحمة والشفقة لأنهم فى مسيس الحاجة إلى ذلك لتعويضهم هذا اليتيم وذلك الحرمان ، ويسألونك يا محمد – صلى الله عليك وسلم – عن مخالطة اليتامى فى أموالهم أن يخالطونهم أم يعتزلوهم ؟ فقل لهم : " مداخلتهم على وجه الإصلاح خير من اعتزالهم ، وإذا خلطتم أموالهم بأموالكم على وجه المصلحة لهم فهم إخوانكم فى الدين ، وأخوة الدين أقوى من أخوة النسب ، ومن حقوق هذه الأخوة المخالطة بالإصلاح والنفع ، والله – سبحانه وتعالى – أعلم وأدرى بمن يقصد بمخالطتهم الخيانة والإفساد لأموالهم ، ويعلم كذلك من يقصد لهم الإصلاح فيجازى كلا بعمله ولوشاء الله لأوقعكم فى الحرج والمشقة ، وشدد عليكم ، ولكنه يسر عليكم الدين ، وسهلة رحمةً بكم ، وهو تعالى الغالب الذى لا يمتنع عليه شيء ، الحكيم فيما يشرع لعباده من الأحكام .

ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [سورة النساء:٢]. وقوله تعالى : ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [سورة النساء:٦]. وأيضا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٨﴾ وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾ [سورة النساء:٨:١٠]

. والمعنى : يقول مقاتل : " وابن حيان : " نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد ولي مال يتيم وكان اليتيم ابن أخيه فأكله فأنزل الله هذه الآية {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا } يعني حراماً بغير حق { إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا } يعني سيأكلون يوم القيامة فسمي الذين يأكلون ناراً بما يؤول إليه أمرهم يوم القيامة .

قال السدُّيِّ يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهب النار يخرج من فيه ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم . وفي حديث أبي سعيد الخدري قال: حدثني النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسري به قال : "نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً .

وقيل إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام والمراد أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضي به إلى النار وإنما خص الأكل بالذكر وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل لكل ذلك لليتيم . فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود وإنما ذكر البطون

للتأكيد فهوكقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني { وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } يعني بأكلهم أموال اليتامى ظلماً والسعير النار الموقدة المسعرة . ولما نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس واحترزوا من مخالطة اليتامى وأموالهم بالكلية فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى : { وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ } وقد توهم بعضهم أن قوله وإن تخالطوهم ناسخ لهذه الآية وهذا غلط ممن توهمه لأن هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً وهذا لا يصير منسوخاً لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وقوله : وإن تخالطوهم فإخوانكم وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى والإحسان إليهم وهو من أعظم القرب .

ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. ففى هذه الآية الكريمة يوصى الله بالإحسان إلى اليتامى بعد عبادة الله وعدم الشرك به والإحسان إلى الوالدين ، وإلى الأقرباء وبذى القربى يعنى : وأحسنوا إلى اليتامى ، وانما أمرهم بالإحسان إليهم لأن اليتيم مخصوص بنوعين من العجز وهما الصغر ، وعدم المشفق ، فكان بذلك محتاجا إلى الإحسان ، والترفق به ، والرحمة ، والعطف ، والرعاية ، ولتعويض الجرعة التى افتقدها من الحنان باليتيم .

ومثلها قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء:١٢٧]. والمعنى : يفتينكم فى النساء اليتامى ، وقيل فى اليتامى أولاد النساء ونحن نميل إلى هذا الرأى حيث إن اليتيم للرجل فى اللغة معناه عدم الزواج أومن ليست له امرأة ولا زوج ،، المرأة اليتيمة هى التى لا زوج لها . فقد بَيّن اليتم هنا عدم اقترانها برجل يحصنها ويعفها . فالمراد باليتامى هنا " أولاد النساء " لأنهم حرموا عطف

الأمهات . ويقول علماء النفس : " إن الطفل إذا نام على صدر أمه فإنه بذلك يأخذ جرعة من الحنان وهو نائم يغط فى نومه – سبحانه وتعالى - الحنان المنان .

فإذا كان الطفل يأخذ جرعة الحنان وهونائم على صدر أمه ، أوفى حضن أبيه ، فما بالك بفقد الأب أو الأم وحرمانه البتة مما اعتاده من أبويه من الحنان والرفق والعطف والحنو؟ . وقوله تعالى : " وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا " . أي بالعدل وذلك فى مهورهن ، ومواريثهن ، وما تفعلوا من خير فإن الله سيجازيكم عليه . نعم إنه القرآن الكريم .

ومثلها فى المعنى أيضا قوله – سبحانه وتعالى - : ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٢]. والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم بوجه من الوجوه الا بالخصلة التى هى أنفع له حتى يصير بالغاً شديداً . والنهى عن القرب فى الآية يعم وجوه التصرف لأنه إذا أنهى عن أن يقرب المال فالنهى عن أكله أولى وأحرص ، والتى هى أحسن " منفعة اليتيم " . وتثمير ماله . قال ابن عباس – رضي الله عنهما - :" هو أن له عملاً مصلحاً فيأكل منه بالمعروف " .

يقول صاحب اللَّطائف : " ثم مجانبة مال اليتيم والنظر إليه بعين التكريم. ويقول ابن كثير : " عن ابن عباس – رضي الله عنهما - : " عن ابن عباس قال: لما نزلت الآية: { وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ } و{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } انطلق من كان عنده يتيم فعزَل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه فيُحبَس له حتى يأكله أويفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: { وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ } فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وقوله: { حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ} قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعني: حتى

يحتلم . وقال السُّدِّي: حتى يبلغ ثلاثين سنة، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ستون سنة. والرأى الأول أرجح فى رأينا وهوثلاثون سنة لأن بلوغه سن الأربعين يكون قد كمل نضجه واستوى عوده . وقوى جسمه وبلغ رشده ، حيث إن الله – سبحانه وتعالى – بعث الأنبياء عند البلوغ الواحد منهم أربعين . فدل ذلك على أن سن الأربعين هو كمال النضج العقلى .

ويقول – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال:٤١]. والمعنى : اعلموا أيها المؤمنون أن ما غنمتموه من أموال المشركين فى الحرب قليلا كان أوكثيرا فأن لله خمسه .

يقول الحسن : قال تعالى { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ } فأن لله خمسه ، قال : هذا مفتاح الكلام ، لله الدنيا والآخرة؛ ثم قال : وقد اختلف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في سهم الرسول وسهم ذوي القربى ، فقال بعضهم : للخليفة ، وقال بعضهم : لقرابة الخليفة ، فاجتمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والعدة في سبيل الله تعالى ، فكانا كذلك في خلافة أبي بكر وعمر.

وعن ابن عباس قال : كان الخمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم على خمسة أسهم : سهم الله ورسوله واحد ، ولذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل؛ وقسم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ على ثلاثة أسهم لليتامى والمساكين وابن السبيل . وبهذا أخذ أبوحنيفة رضي الله عنه وأصحابه أن الخمس يقسم على ثلاثة أسهم ، ولا يكون لأغنياء ذوي القربى شيء ، ويكون لفقرائهم فيه نصيب ، كما يكون لسائر الفقراء ، وكذلك يُتَاماهم وابن السبيل منهم ، وذلك قوله تعالى: { فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ } .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٣٤]. والمعنى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم الا بالطريقة التى هى أحسن ، ويعنى بالطريقة " حفظه واستثماره " حتى يبلغ اشدة ، ويحسن التصرف فى ماله . ومثلها فى المعنى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الكهف:٨٢]. والمعنى : وأما الجدار الذى بنيته دون اجر ، والذى كان يوشك أن يسقط على الأرض فقد خبئ تحته كنز من ذهب ، وفضة لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصلاح أبوهما ، وقيل : أنه الأب السابع ، مع أن ظاهر اللفظ يدل على أنه أبوهما مباشرةً . وهو الأرجح .

يقول المفسرون : " إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع " . ، فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ، ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ، رحمةً من الله بهما لصلاح أبيهما .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر:٧]. والمعنى : ما جعله الله غنيمة لرسوله بدون قتال من أموال الكفار ، وهى قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة { فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ } يعني الرسول وأهله من بني هاشم وبني المطلب { وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ } وحكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هوللأئمة بعده

وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هولمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

ومثلها قوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [سورة الإنسان:٨]. ويطعمون الطعام على حبهم له ، وشهوتهم له فقيرا لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ثم يتيماً وهو الذى مات أبوه ، وهو صغير. فعدم الناصر والكفيل فهو فى مسيس الحاجة إلى الرعاية والكفالة والشفقة والرحمة ، وسد حاجته والثالث هو الأسير وهو: من أُسِر فى الحرب من المشركين .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [سورة الضُّحى:٩]. والمعنى : فأما اليتيم فلا تحتقره ، ولا تغلبه بتضييع ماله . والمراد : " كن لليتيم كالأب الرحيم ، فقد كنت يتيماً فآواك الله .ويقول المراغى فى تفسيره : " فأما اليتيم فلا تقهر أي لا تقهر اليتيم ، ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ، وهذبه بمكارم الأخلاق ، ليكون عضواً نافعاً فى جماعتك ، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك ، ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها فى غيره وقد كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتيما ، فباعد الله عنه ذُل اليتم فآواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكراً لله على نعمته .

هذه أخلاق القرآن الكريم التى تحثنا وترشدنا إلى إكرام الأيتام والعطف عليهم وحبهم ، والحدب عليهم ، ورعاية مصالحهم حتى يشبوا عن الطوق ، ويكون فى وسعهم تولى مصالحهم بأنفسهم ، ولا يأتى لهم ذلك إلا برعايتهم وبلوغ رشدهم واستقامة عودهم وتفتح أذهانهم ، ومعرفتهم بدروب الحياة . نعم إنه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وصدق الله تعالى حين قال : ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [سورة الضُّحى:٩:١١]

الإحسان للمساكين

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة والتى يرشدنا إليها ربنا الإحسان للمساكين الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، فهؤلاء المساكين يجب على المسلم رعايتهم والنظر إليهم بعين العطف ، والرعاية ، والشفقة ، والرحمة ، وأن يبذل لهم ما هم فى حاجة اليه ، وبذلك يكون المجتمع المسلم مجتمعاً قوياً متماسكاً متيناً نسيجه ، قويةً شكيمته كما يصبح هذا الفقير حسن الحال محباً لمجتمعه المسلم ، بل عاشقاً له متفانياً فى حبه مضحياً بروحه فى سبيله ، وهذا هو الانتماء الحقيقى الذى تبحث عنه الدولة ، بل الأمة فلا تجده ، وذلك لإنعدام الشفقة والرحمة والرعاية من الحكام لمحكوميهم ، من القادة لشعوبهم ، حيث إن المساكين لا يجدون ملجأ ولا سبيلاً للعيش الكريم أونصف الكريم ، وبذلك لا تجد انتماءً حقيقياً عند كثرة كاثرة من الشعوب ، كما أنك تجد " الولاء " لديهم معدوما .

يقول الحق – سبحانه وتعالى – فى هذا المعنى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:٨٣]. والمعنى : والمساكين جمع "مسكين " ، وإنما تأخرت درجة المساكين عن اليتامى لأنه قد يمكن أن ينتفع بنفسه، وينتفع غيره بالخدمة ، ويقول صاحب صفوة التفاسير : " والمساكين هم الذين عجزوا عن الكسب ، فوجب على المسلم رعايتهم وصون وجهه عن السؤال وإعطائه ما يحتاج اليه من نفقه .

ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة النساء:٨]. وقوله أيضا ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. يقول الإمام الشهيد " سيد قطب " : { وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا } . . وقد وردت في هذه الآية روايات شتى عن السلف . ما بين قولهم إنها منسوخة نسختها آيات الميراث المحددة للأنصبة وقولهم : إنها محكمة . وما بين قولهم : إن مدلولها واجب مفروض وقولهم : إنه مستحب ما طابت به أنفس الورثة . . ونحن لا نرى فيها دليلاً للنسخ ونرى أنها محكمة وواجبة . في مثل هذه الحالات التي ذكرنا . معتمدين على إطلاق النص من جهة وعلى الاتجاه الإسلامي العام في التكافل من جهة أُخرى . . وهي شيء آخر غير أنصبة الورثة المحددة في الآيات التالية على كل حال .

وقبل أن يأخذ السياق في تحديد أنصبة الورثة يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى . . يعود إليه في هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين : أولاهما تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطري على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب . والثانية تمس مكان الرهبة من النار والخوف من السعير في مشهد حسي مفزع .

ويقول صاحب " مفاتيح الغيب " : " أن المراد بالقسمة الوصية ، فاذا حضرها من لا يرث من الأقرباء واليتامى والمساكين أمر الله تعالى أن يجعل لهم نصيباً من تلك الوصية ، ويقول لهم مع ذلك : قولا معروفاً في الوقت ، فيكون ذلك سبباً لوصول السرور إليهم في الحال والاستقبال ، والقول الأول أولى ، لأنه تقدم ذكر الميراث ولم يتقدم ذكر الوصية ، ويمكن أن يقال : هذا القول أولى لأن الآية التي تقدمت في الوصية .

وفي تفسير الآية أن قوله : { وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ } فالمراد من أُوْلِي القربى الذين يرثون والمراد من اليتامى والمساكين الذين لا يرثون . ثم قال : { فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا } فقوله : { فَٱرْزُقُوهُم } راجع إلى القربى الذين يرثون وقوله : { وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا } راجع الى اليتامى والمساكين الذين لا يرثون .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الأنفال:٤١]. والمعنى : أنه يقتضى ثبوت الملك لهؤلاء فى الغنيمة . ومنهم المساكين . ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٢٦] . والمعنى : أ، الآية خطاب للرسول التى وجهت لهم فى الفيء والغنيمة ، وأوجب عليه أيضا إخراج حق المساكين وأبناء السبيل ويجب أن يدفع إلى المسكين ما يفى بقوته ، وقوت عياله ، وأن يدفع إلى ابن السبيل ما يكفيه من زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده .

ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الروم:٣٨]. والمعنى : إن تخصيص الأقسام الثلاثة المذكورين فى الآية وهم : " الأقرباء ، والمسكين ، وابن السبيل " دون غيرهم مع أن الله – سبحانه وتعالى – ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة التوبة:٦٠]. فنقول : " إنه أراد هنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له : سواء كان زكويا أو لم يكن ، وسواء قبل الحول أوبعده ، لأن المقصود ها هنا الشفقة العامة ، وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم ، وأن لم يكن للمحسن مال زائد . والمسكين يجب العطف عليه ، فإن الذى لا يملك شيئاً من حطام الدنيا إذا استمر فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة فى دفع حاجته وإعطائه ما يغنيه وإن لم يكن عليه زكاة .

ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الإنسان:٨]. والمعنى : يقول ابن عباس ومجاهد – رضي الله عنهم – : " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ ، مَعَ شَهْوَتِهِمْ لَهُ ، وَرَغْبَتِهِمْ فِيهِ ، لِلْفَقِيرِ العَاجِزِ

عَن الكَسْبِ (المِسْكِين) ، وَاليَتِيمِ الذي مَاتَ أَبُوهْ ، وَهُو دُونَ سِنِّ البُلُوغِ وَالأَسِيرِ العَاني الذِي لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ قُوتـاً . وقال " الدارانى " : " على حب الله " . ويقول الفضل بن عياض : " على حب إطعام الطعام.

وكان الربيع بن خيثم إذا جاءه السائل قال: أطعموه سكراً فإن الربيع يحب السكر. ولأنه فطن لقوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٢].

" مسكينا " أي ذا مسكنة.

هذا هو الإسلام الذى يأخذ على عاتقه توجيه معتنقيه إلى العطف والرحمة بالمسكين حتى يغنوه عن المسألة ، صوناً لكرامته ، وحفظاً لماء وجهه ، وإنقاذاً له من التردي فى مهاوى الهلاك والرذيلة ، ومساعدةً له على الاستقامة ، والسير قدما فى طريق الفوز والنجاح وبذلك يقوى المجتمع ويتماسك ويصبح قوة تستطيع رد هجمات الأعداء ، وردع المعتدين، مع رفع مستوى المعيشة فى المجتمع الاسلامى .(١)

1- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٧٤ .
- ذاته ص ٢٧٥ .
- تفسير أبو السعود جـ ٢ ، ص ١٤٦ .
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٣٣ – ٣٤ ، حـ ٩ ، ص ١٧ - ٢٠ .
- ذاته جـ ٦ ، ص ٨ – ٩ ، ص ٤٨ – ٤٩ .
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٣ ' ص ٢٣١ .
- التسهيل فى علوم التنزيل جـ ٣ ، ص ١٢٦.
- فى ظلال القرآن لسيد قطب ، جـ ١ ، ص ٥٨٨.
- مفاتيح الغيب للرزاى جـ ٥ ، ص ٣٧ .
- ذاته جـ ٧ ' ص ٤٩٩.
- ذاته جـ ١٠ ، ص ٦٦ بتصرف .
- ذاته جـ ١٢ ، ص ٤٧٦ .
- تفسير القرطبى جـ ١٩ ، ص ١٢٨ بتصرف .

الإحسان للجار

يوصى الإسلام بالجار، وَبَيّن حقوقه على جاره ، وهى كُثر، وصدق رسول الله - عليه الصلاة والسلام - إذ يقول : " مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه " . أي يجعل له ميراثاً ، والإسلام يوضح أن الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق ، وهوالجار المسلم القريب ، له حق الإسلام ، وحق الجوار وحق القرابة ، وجار له حقان : وهوالجار الأجنبي : له حق الإسلام وحق الجوار، وجار له حق واحد : وهو الذمى ، له حق الجوار. ومن حقوق الجوار ألا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح ، وألا تؤذيه بقتار قِدْرَك حتى تغرف له منها ، وإذا أدخلت فاكهة على أولادك فأهده منها ، وإلاَّ فأدخلها سراً ، وبالنسبة للذمى : لا تؤذه حِساً ولا معنى ، أرأيت كيف يحافظ الإسلام على مشاعر الإنسان ومراعاة حقوق الجار. كما أننا نرى القرآن، الكريم يوجهنا ويضع أيدينا على هذه المعانى السامية ،فيقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾[سورة النساء:٣٦] . يقول القرطبى فى تفسير هذه الآية : " اجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه ، وكذلك هى فى جميع الكتب . ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل وإن لم ينزل به الكتاب . وقوله تعالى : قوله تعالى: (وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ) أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاة برعى ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه.

ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والاقربين فقال تعالى: (وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ) أي القريب.(وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ) أي الغريب، قاله ابن عباس، وكذلك هو في اللغة. ومنه فلان أجنبي، وكذلك الجنابة البعد.

وأنشد أهل اللغة:

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

وقال الاعشى :

أتيت حريثا زائرا عن جنابة فكان حريث عن عطائي جامدا

وقرأ الأعمش والمفضل (والجار الجَنْب) بفتح الجيم وسكون النون وهما لغتان، يقال: جنب وجنب وأجنب وأجنبي إذا لم يكن بينهما قرابةً، وجمعه أجانب.

وقيل: على تقدير حذف المضاف، أي والجار ذي الجَنْب أي ذي الناحية.

وقال نوف الشامي: (الجار ذي القربى) المسلم (والجار الجَنْب) اليهودي والنصراني. وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أوكافرا، وهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه. روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

وروي عن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن)

قيل: يا رسول الله ومن ؟

قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه) وهذا عام في كل جار.

وقد أكد عليه السلام ترك إذايته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الإيمان الكامل من آذى جاره. فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضاه حضر العباد عليه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق . وجار له حقان . وجار له حق واحد . فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب ، له حق الجوار، وحق القرابة ، وحق الإسلام والجار الذي له حقان فهوالجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار والجار الذي له حق واحد هوالكافر له حق الجوار).

روى البخاري عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فإلى أيهما أهدي، قال: (إلى أقربهما منك بَاباً) . فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى: (وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ) وأنه القريب المسكن منك. (وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ) هو البعيد المسكن منك. واحتجوا بهذا على إيجاب الشفعة للجار، وعضدوه وبقوله عليه السلام: (الجار أحق بصقبه). ولا حجة في ذلك،

فإن عائشة رضي الله عنها إنما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عمن تبدأ به من جيرانها في الهدية فأخبرها أن من قرب بابه فإنه أولى بها من غيره.
قال ابن المنذر: فدل هذا الحديث على أن الجار يقع على غير اللصيق. وقد خرج أبوحنيفة عن ظاهر هذا الحديث فقال: إن الجار اللصيق إذا ترك الشفعة وطلبها الذي يليه وليس له جدار إلى الدار ولا طريق لا شفعة فيه له وكذا وعوام العلماء .

يقولون: إن أوصى الرجل لجيرانه أعطي اللصيق وغيره، إلا أبا حنيفة فإنه فارق عوام العلماء وقال: لا يعطى إلا اللصيق وحده. واختلف الناس في حد الجيرة، فكان الاوزاعي يقول: أربعون داراً من كل ناحية .

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني نزلت محلة قوم وإن أقربهم إلَيَّ جواراً أشدهم لي أذى ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً يصيحون على أبواب المساجد : ألا إن أربعين داراً جار ولا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .

وقال علي بن أبي طالب: من سمع النداء فهو جار.

وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد.

وقالت فرقةُ: من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة فهوجار.

قال الله تعالى: (لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ) إلى قوله: (ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا) فجعل تعالى اجتماعهم في المدينة جوارا. والجيرة مراتب بعضها الصق من بعض، أدناها الزوجة، كما قال:

أيا جارتا بيني فإنك طالقة

ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أبا ذر إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك). فحض عليه السلام على مكارم الأخلاق، لما رتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة، فإن الجار قد يتأذى بقتار قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لاسيما إن كان القائم ضعيفاً أوأرملةً فتعظم المشقة ويشتد منهم الألم والحسرة. وهذه كانت عقوبة يعقوب في فراق يوسف عليهما السلام فيما قيل. وكل هذا يندفع بتشريكهم في شئ من الطبيخ يدفع إليهم، ولهذا المعنى حض عليه السلام الجار القريب بالهدية، لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب . هذه الأخلاق فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . (١)

1 - تفسير الكشاف للزمخشرى .
- تفسير الرازى .
- تفسير أبو السعود .
- تفسير القرطبى جـ ٣ ، ص ١٧٤٩ - ١٧٥٨.

الإحسان لابن السبيل والسائل

ويرشدنا القرآن الكريم إلى الإحسان لابن السبيل والسائل . وابن السبيل هو: الذى انقطعت به الطريق فأصبح محتاجاً إلى من يمد له يد العون بالمساعدة . وما يأخذ بيده إلى بر الأمان ، وبلوغه ما يريد ، ووصوله إلى ما يبتغى فى سفره . ومقصوده . فيقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النساء:٣٦]. والمعنى : وحدوا اللّه وأطيعوه ، ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ، وبذي القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل : وهوالمسافر الذى المجاز بك الذى انقطع به الطريق وعجز عن بلوغ ما يريده فى سفره مما يحتاج إليه من زاد أو راحلة ، فلقد وجهنا القرآن الكريم إلى مساعدته حتى يصل إلى بلده ، أو تحقيق ما هو فى حاجة إليه كسد جوعته أو استضافته ، وتأمينه ، وتأمين طريقه .

ويقول بعض المفسرون : " ابن السبيل المسافر الغريب الذى انقطع عن بلده ، وأهله ، وقيل أن ابن السبيل هوالسائح الرحالة فى غرض صحيح غير محرم ، والأمر بالإحسان إليه . ويتضمن الترغيب فى السياحة ، والعناية والإعانة بها ، ويشمل اللَّقيط أيضا ، وهو أجدر بالرعاية من اليتيم ، وأحق بالإحسان اليه وقد عنى الأوروبيون باللقطاء وبتربيتهم ، وقد كنا أحق من الأوروبيين بهذا الإحسان . وذلك العمل الذى يبنى المجتمع الاسلامى ، ولا يدع فيه شقياً ولا محروماً . لأن اللّه – سبحانه وتعالى – جعل فى أموالنا حقا معلوماً للسائل والمحروم .

ويقول اللّه – سبحانه وتعالى – : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنفال:٤١] . ويقول الخازن :" وهوالمسافر البعيد عن ماله فيعطى من خمس الخمس مع الحاجة فهذا مصرف خمس الغنيمة ويقسم

أربعة أخماسها الباقية بين الغانمين الذين شهدوا الواقعة وحازوا الغنيمة فيعطى للفارس ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه ، ويعطى الراجل سهماً واحداً لما روي عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم في النفل للفرس سهمين وللرجل سهماً .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٢٦]. والمعنى : وأعط الغريب المنقطع به السبيل فى سفره حقه من مال الله الذى آتاكم ، والذى جعل الله فيه حقاً للسائل ، وابن السبيل والمسكين والمحروم . ونفى نفس المعنى يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الروم:٣٨]. والمعنى : أعط ابن السبيل حقه من البر والصلة ، والصدقة والإحسان .

ويقول الله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر:٧]. والمعنى : ما رده الله إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من كفار أهل القرى . وهى قال ابن عباس هي قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ} يعني بني هاشم وبني المطلب { وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} قد تقدم تفسيره في سورة الأنفال في حكم الغنيمة وقسمتها وأما حكم الفيء فإنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم مدة حياته يضعه حيث يشاء فكان ينفق على أهله منه نفقة سنتهم ويجعل ما بقي مجعل مال الله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله . واختلف العلماء في مصرف الفيء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم هو للأئمة بعده وللشافعي فيه قولان أحدهما أنه للمقاتلة والثاني هولمصالح المسلمين ويبدأ بالمقاتلة ثم بالأهم فالأهم من المصالح .

ونحن نرى أن ابن السبيل غير موجود الآن لسهولة المواصلات ، ووجود الوسائل العصرية مثل الحوالات البريدية ، والشيكات السياحية ، والفيزا كارت ،

فيمكنك أن تشترى أي شيء تحتاجه ، ولو كان ذلك الشيء رغيفاً من الخبز. وذلك من أي مصرف على ظهر الكرة الأرضية . فابن السبيل الآن لا وجود له البتة .

ويقول المولى – سبحانه وتعالى – : " فى نفس المعنى : ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الضُّحى:١٠]. والمعنى : لا تزجر، ولا تنهر المستجدى ولكن يجب أن تتفضل عليه بشيء ، أوترده رداً جميلاً . وقد يكون المراد من السائل المسترشد وهوأيضا يطلب الرفق به . وبيان أشكل عليه الأمر.

هذه هى أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والتى يجب أن يتغياها المسلم فى حياته حتى يفوز برضوان الله – سبحانه وتعالى – ، ويكون من الذين – رضي الله عنهم – ورضوا عنه ، وأيضا يكون فى الآخرة من أصحاب الميمنة .(١)

1- تفسير المراغى : جـ ٢ ، ص ٣٦ – ٣٧ .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ٣٩ بتصرف .
- ذاته جـ ١٠ ، ص ١٨٧ بتصرف .
- تفسير الخازن جـ ١ ، ص ٢٤١ .
- صفوة التفاسير جأ ١ ، ص ٢٧٥ .
- ذلته ص ١٥٨ .
- ذاته ، جـ ٢ ، ص ٤٧٩ .

الإحسان إلى الأبناء

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة الإحسان إلى الأبناء على الرغم من أنهم فلذات أكبادنا ، وأن الأبناء يعنون كبير العناية بتربيتهم ، ورعايتهم ، وإحاطتهم بسياج من الرأفة ، والشفقة ، والرحمة ، والسهر على راحتهم ، وصدق الشاعر العربى حين قال :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني من الغمض

ولذلك يقول الحق – سبحانه وتعالى – فى هذا المعنى : ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ﴿٧﴾ ﴾ [سورة مريم:٧]. والمعنى : يا زكريا إنَّا نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيي . كما فى آل عمران . يعنى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم وهو" يحيي " – عليه السلام – . فهواسم فذ ، وغير مسبوق وقد سماه الله تعالى به ، ولم يترك تسميته لوالديه . يقول مجاهد : " – رضي الله عنه – : " ليس له شبيه فى الفضل والكمال " . ويقول صاحب اللطائف فى معنى هذه الآية : " أي استجبنا لدعائك ، ونرزقك ولداً ذكَرَاً اسمُه يحيى؛ تحيا به عُقْرَةُ أُمِّه ، ويحيا به نَسَبُكُ ، يحيا به ذكْرُك ، وما سألْته من أن يكون نائباً عنك؛ فيحيا به محلُّ العبادة والنبوة في بيتك{ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا } : انفراده – عليه السلام – بالتسمية يدل على انفراده بالفضيلة؛ أي لم يكن له سَمِيٌّ قَبْله؛ فلا أحَدَ كُفْؤٌ له في استجماع أوصاف فَضْله . ويقال لم تجعل له من قبل نظيراً؛ لأنه لم يكن أحد لا ذنبَ له قَبْلَ النبوة ولا بعدها غيره . وهذا رأى الإمام القشيرى .

ويقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٣] . والمعنى : يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده –وهو: لقمان بن عنقاء بن سدون. واسم ابنه : ثاران في قول حكاه السهيلي . وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، فإنه آتاه الحكمة، وهويوصي ولده الذي هوأشفق الناس عليه وأحبهم إليه، فهو حقيق أن

يمنحه أفضل ما يعرف؛ ولهذا أوصاه أولا بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، ثم قال تعالى محذرًا له: { إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } أي: هوأعظم الظلم.

قال البخاري ،عن عبد الله، رضي الله عنه، قال: لما نزلت الآية: { ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ } ، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيَّنا لم يَلْبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس بذاك، ألا تسمع إلى قول لقمان: { يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } .

ومثلها قول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة لقمان:١٩]. والمعنى : ومن بين وصايا لقمان لابنه شفقةً عليه ، ورحمةً به هذه الوصية الغالية وهى : وأمشى مشية معتدلة ليس بالبطئ ، ولا بالتسريع المفرط بل عدلاً ووسطاً ، ولا تبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ، ولهذا قال – سبحانه وتعالى – : " إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ " . فغاية من يرفع صوته أنه يشبه الحمير فى علو الصوت ، وَرَفْعِهِ .

وروى أبى هريرة – رضي الله عنه – قال : " عن النبي صلى الله عليه وسلم [سورة أنه] قال: "إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً".

هذه وصايا نافعة جداً، وهي من قَصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم. وقد روي عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة، فلنذكر منها نموذجاً ودستوراً إلى ذلك.

قال الإمام أحمد: عن ابن عمر رضي الله عنه قال: أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن لقمان الحكيم كان يقول: إن الله إذا استودع شيئاً حفظه" .

وقال ابن أبي حاتم: عن القاسم بن مُخَيْمِرة يحدث عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " قال لقمان لابنه وهويعظه: يا بني، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل، مذمة بالنهار" . وقال: حدثنا أُبَيّ، حدثنا عمرو بن عثمان، عن ضَمْرَة، حدثنا السَّريّ بن يحيى قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك.

وعن عَوْن بن عبد الله قال: قال لقمان لابنه: يا بني، إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام -يعني السلام -ثم اجلس في ناحيتهم، فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا، فإن أفاضوا في ذكر الله فَأَجِلْ سهمك معهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم.

وعن حفص بن عمر، رضي الله عنه، قال: وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه، وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة، حتى نفذ الخردل، فقال: يا بني، لقد وعظتك موعظة لووُعِظَها جبل لتفطر. قال: فتفطر ابنه.

وقال أبو القاسم الطبراني: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتخذوا السَوّدَان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة: لقمان الحكيم، والنجاشي، وبلال المؤذن" .

ويقول الله – سبحانه وتعالى – أيضا : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة الطور:٢٦]. والمعنى : أنهم قالوا إنا كنا فى دار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه ، وخائفين من عقابه ، فتفضل الله علينا ، وأجارنا مما نخاف . والمقصود وهوإثبات خوفهم فى سائر الأوقات وجميع الأحوال بطريق الأولى ، فإن وجودهم بين أهليهم مطلبه الأمن ، فإذا خافوا فى تلك الحال ، فلأن يخافوا فى غيرها بالأولى .

وروى أن السيدة الفضلى عائشة بنت أبى بكر الصديق – رضي الله عنهما – قالت : " لو فتح الله على أهل الأرض من عذاب السموم قدر الأنملة لأحرقت الأرض ومن عليها . ويقول صاحب اللطائف فى هذه الآية : " لولا أَنهم قالوا { فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا } لكانوا قد لاحظوا إشفاقَهم ، ولكن الحقّ – سبحانه –

اختطفهم عن شُهود إشفاقهم؛ حيث أَشهدهم مِنَّته عليهم حتى قالوا : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ { إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ }

هذا هو الخُلُق والإحسان إلى الأبناء وذلك يكون بتقديم النصح لهم ، وتربيتهم على مائدة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ليصبحوا أعضاءً نافعين لأنفسهم ولأسرهم ، ولأوطانهم ، وليسعدوا فى دنياهم ويفوزوا برضا الله – عز وجل - فى أخراهم (١) .

---

1 - لطائف الاشارات للقشيرى جـ ٣ ، ص ٤٧٦ .
- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ، ص ٢١٢.
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤٤٢ بتصرف .
- ذاته ص ٤٤٦.
- تفسير المراغى ، جـ ٩ ، ص ٢٨ بتصرف .

الإحسان إلى الزوجات

ومن الأخلاق القرآنية التى يرشدنا إليها القرآن الكريم الإحسان إلى الزوجات لأنهن عوان لدينا كما أرشدنا إلى ذلك النبي – صلى الله عليه وسلم – وهن أمانة لدى الرجال ، وأنهن خلقن من ضلع أعوج فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته ظَلَّ أعوجاً ، وذلك توجيه نبوي راشد ، ويلزم على ذلك المرارة والصبر حتى تستقيم الحياة الزوجية . وعلى أساس الاستقامة يكون الاستقرار ، وصلاح الأسرة التى هى الخلية الأولى فى بناء مجتمع اسلامى سليم ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع ، وإذا صلح المجتمع صلحت الدولة ، وإذا صلحت الدولة صلحت الأمة جمعاء . إذن فالأسرة الصالحة أساس تكوين المجتمع والأمة الإسلامية الناجحة المتحضرة المتقدمة .

ولذلك يقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٨٧]. والمعنى : أُبيح لكم أيها الصائمون غشيان النساء فى ليالى الصوم . يقول ابن عباس – رضي الله عنه – : " عن أبي إسحاق: سمعت البراء قال: لما نزل صومُ رمضان كانوا لا يقرَبُون النساء، رَمَضَان كُلّه، وكان رجَال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: { عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ }.

وقال ابن عباس قال: كان المسلمون في شهر رمضان إذا صَلُّوا العشاء حَرُم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: { عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ}

وقال أيضا ابن عباس : إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون، ويحل لهم شأن النساء، فإذا نام أحدهُم لم يطعم ولم يشرَب ولا يأتي أهله حتى يفطر من القابلة، فبلغنا أن عُمَر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوْمُ وَقَع على أهله، ثم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت. قال: "وماذا صنعت؟ " قال: إني سَوَّلَتْ لي نفسي، فوقعت على أهلي بعد ما نمت وأنا أريد الصوم. فزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما كنت خليقاً أن تفعل". فنزل الكتاب: { أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ } .

" وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " أي ، فما دمتم معتكفين فى المساجد فلا تقربوهن ليلاً ، أو نهاراً ، تلك أوامر الله – سبحانه وتعالى - وزواجره ، وأحكامه التى شرعها لكم فلا تخالفوها ، كذلك بَيَّن الله لكم آياته لعلكم تتقونه ، وتخشونه وتخافونه .

ثم يقول الله – سبحانه وتعالى - فى آية أُخرى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ

لَكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [سورة البقرة:٢٢٢:٢٢٣] . والمعنى : ويسألونك يا محمد – صلى الله عليك وسلم – عن غشيان النساء وإتيانهم فى حالة الحيض أيحل أم يُحَرم ؟ فقل لهم : " إنه شيء متقذر، ومعاشرتهن فى هذه الحالة فيه ضرر وأذى للزوجين ، فاجتنبوا معاشرتهن فى حالة الحيض حتى يتطهرن ، ولا تجامعوهن حتى ينقطع عنهن دم الحيض ، ويغتسلن ، والمراد التنبيه على أن الغرض هوعدم المعاشرة وليس عدم القرب منهن ، أو عدم الأكل والشرب والمجالسة مثل ما كان يفعل اليهود . فقد كانوا إذا حاضت المرأة لديهم يقاطعونها مقاطعة تامة فى الاكل ، والشرب والمجالسة .

فإذا تطهرن بالماء فأتوهم فى المكان الذى أحله الله لكم ، وهومكان النسل والانجاب والولد ، وفى القبل وليس فى الدبر حيث إن الله يحب التأبين من الآثام والخطايا ، والمتنزهين عن الفواحش ، والاقذار. ونساءكم مكان زرعكم ، وموضع نسلكم ، وفى أرحامهن يكون الولد ، فأتوهن فى موضع النسل ، والذرية ، ولا تتعدوه إلى غيره .

يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – : " عن ابن عباس : أنه كان يكره أن تؤتي المرأة في دبرها ويقول : إنما الحرث من القبل الذي يكون منه النسل والحيض وينهى عن اتيأن المرأة في دبرها ويقول : إنما نزلت هذه الآية : { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ } يقول : من أي وجه شئتم حدثنا ابن حميد قال حدثنا ابن واضح قال حدثنا العتكي عن عكرمة : { فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ } قال : ظهرها لبطنها غير معاجزة – يعني الدبر حدثنا عبيد الله بن سعد قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن يزيد عن الحارث بن كعب عن محمد بن كعب قال : إن ابن

عباس كان يقول : اسق نباتك من حيث نباته حدثت عن عمار قال حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله :{ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ } يقول : من أين شئتم ذكر لنا - والله أعلم - أن اليهود قالوا : إن العرب يأتون النساء من قبل إعجازهن فإذا فعلوا ذلك جاء الولد أحول فأكذب الله أحدوثتهم فقال : { نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ } . ومعنى أنا شئتم . أي كيف شئتم قائمةً ، أوقاعدة ، مضطجعةً أو غير ذلك من الأوضاع الجنسية ما دمت بعيداً عن الدبر.

وروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه ذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله هلكت واهلكت .

قال له : ما الذى فعلت ؟ فقال عمر - رضي الله عنه - : " أدرت رحلى البارحة . فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فنزل قوله تعالى :{نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ }فقال - صلى الله عليه وسلم - : " أقبلوا وادبروا واتقوا الحيضة والدبر. فهذا وضع عُمَرِى وليس أجنبى ، وأول من فعله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والمقصود بمكان الحرث الفرج وهذا رد على قول اليهود إن العرب يأتون النساء من قبل إعجازهن فإذا فعلوا ذلك جاء الولد أحول فأكذب الله أحدوثتهم .

تلك هى الأخلاق القرآنية والسنة النبوية المطهرة وتوجيهاتهما الراشدة التى تعلمنا نحن المسلمين الإحسان إلى الزوجات . ويقول الله - سبحانه وتعالى - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النساء:١٩]. والمعنى : لقد كان أهل الجاهلية يؤذون النساء باضراب كثيرة من الإيذاء ، وألوان من الظلم

فنهاهم الله عنها فى هذه الآية . فقال : ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾فقد كان الرجل فى الجاهلية إذا مات وكانت له زوجة جاء ابنه أو غيرها ، أو بعض أقاربه فألقى ثوبه على المرأة وقال : " ورثت هذه المرأة عنه كما ورثت ماله ، فصارت أحق بها من سائر الناس ، ومن نفسها ، فإن شاء تزوجها بغير صداق ، غير الصداق الأول الذى أصدقها الميت ، وإن شاء زوجها انسان آخر واجد فى صداقها ولم يعطها منه شيئاً ، فأنزل الله هذه الآية وبين ان ذلك حرام ، وأن الرجل لا يرث امرأة الميت منه ، فعلى هذا القول المراد قوله : ﴿أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ ﴾ . " عين النساء" ، وأنهن لا يُوَرثن من الميت ، وقيل إن الوراثة تعود إلى المال ، وذلك أن وارث الميت كان له أن يمنعها من الإزواج حتى تموت فيرثها مالها فبين الله – سبحانه وتعالى - أن هذا الأمر غير جائز وحرام لكم أن ترثوا النساء أموالهن وهن كارهات لهذا الأمر.

وقيل نزلت فى أهل المدينة كانوا يرثوا النساء من الميت حتى توفي أبوقيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية فقام ابن له من غيرها يقال له حصن وقال مقاتل بن حيان : اسمه قيس بن أبي قيس فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدي منه فأتت كبيشة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث نكاحي ابنه فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي فقال : اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله فأنزل الله تعالى هذه الآية : { يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ } .

قرأ حمزة والكسائي : كُرها بضم الكاف ها هنا وفي التوبة وقرأ الباقون بالفتح قال الكسائي : هما لغتان قال الفراء : الكره بالفتح ما أُكره عليهن وبالضم

ما كان من قبل نفسه من المشقة . ويقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة التوبة:٥٣]

ويقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة الأحقاف:١٥]. بضم الكاف أيضاً وقرأ عاصم وابن عامر فى الاحقاف بالضم والباقى بالفتح . وقرأ نافع وابن كثير وأبوعمرو بالفتح فى جميع ذلك ، ويقول الكسائى : هما لغتان قال الفراء : الكره بالفتح ما اكره عليهن وبالضم ما كان من قبل نفسه من المشقة . ونحن نميل إلى هذا الرأى وهوأنسب للمعنى ففى حمل المرأة ووضعها للولد مشقة ونصب .

ثم يقرأ القرآن " { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ } أي : لا تمنعوهن من الأزواج لتضجر فتفتدي ببعض مالها قيل : هذا خطاب لأولياء الميت والصحيح انه خطاب للأزواج . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا في الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر فيضارها لتفتدي وترد إليه ما ساق إليها من المهر فنهى الله تعالى عن ذلك وهذه أحكام عامة تخص جميع المسلمين ، وذلك لإقامة العدل ومحوالظلم من المجتمع الاسلامى ليكن مجتمعاً نظيفاً عفيفاً يحل ما أحله الله ،ويحرم ما حرم الله .

ثم قال : { إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ } فحينئذ يحل لكم إضرارهن ليفتدين منكم . واختلفوا في الفاحشة قال ابن مسعود وقتادة : هي النشوز وقال بعضهم وهو قول الحسن : هي الزنا يعني : المرأة إذا نشزت أو ذنت حل للزوج أن

يسألها الخلع وقال عطاء : كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشة أخذ منها ما ساق إليها وأخرجها فنسخ الله تعالى ذلك بالحدود .

وقرأ ابن كثير وأبو بكر { مُّبَيَّنَةٍ } { مبينات } بفتح الياء ووافق أهل المدينة والبصرة في { مبينات } والباقون بكسرها .

أما من قرأ بالفتح فله وجهان :

الأول : إن الفاحشة والآيات لا تفعل لهما إلى الحقيقة ، إنما الله تعالى هو الذى بينهما .

ثانياً : أن الفاحشة تُبَيّن فإن شهد عليها أربعة صارت مبينة . أما الآيات فإن الله تعالى بينها . أما قرأ بالكسر فوجهه أن الآيات إذا تبينت وظهرت صارت أسبابا للبيان ، واذا صارت أسبابا للبيان جاز إسناد البيان إليهما ، كما أن الأصنام كانت أسبابا للضلال حسن إسناد الإضلال إليهما كقوله تعالى :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٣٦].

وقوله تعالى : " وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ " . وهوالكلمة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، فإن كرهتم عشرتها بالمعروف ، آثرتم فراقهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ، هذه توجيهات راشدة وأخلاق قرآنية كريمة عظيمة لو أن المسلم استمسك بها لسعد فى دنياه ، وفاز فى أُخراه برضوان الله .

ومثلها فى المعنى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٦]. يقول صاحب الكشاف : " فيه ثلاثة أقاويل :

أولاً : { عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ } في موضع الحال ، أي الأوّالين على أزواجهم : أوقوّامين عليهنّ ، من قولك : كان فَلَان على فلانة فمات عنها فخلف عليها فلان . ونظيره : كان زياد على البصرة ، أي : والياً عليها . ومنه قولهم : فلانة تحت فلان ، ومن ثمة سميت المرأة فراشاً : والمعنى : أنهم لفروجهم حافظون في كافة الأحوال ، إلاَّ في حال تزوّجهم أوتسريهم ، أوتعلق { عَلَىٰٓ } بمحذوف يدلّ عليه قوله تعالى { غَيۡرُ مَلُومِينَ } .

ثانياً : أنه متعلق بمحذوف يدل عليه قوله تعالى : " غَيۡرُ مَلُومِينَ " . أي يلامون إلاَّ على أزواجهم ، أي : يلامون على كل مباشر إلاَّ على ما أطلق لهم ، فإنهم غير ملومين عليه . أوتجعله صلة لحافظين ، من قولك : احفظ عليّ عنان فرسي ، على تضمينه معنى النفي ، كما ضمن قولهم : نشدتك بالله إلاَّ فعلت معنى ما طلبت منك إلا فعلك . فإن قلت : هلاقيل : من ملكت؟ قلت : لأنه أريد من جنس العقلاء ما يجري مجرى غير العقلاء وهم الإناث جعل المستثنى حداً أوجب الوقوف عنده ، ثم قال : فمن أحدث ابتغاءً وراء هذا الحدّ مع فسحته واتساعه ، وهو إباحة أربع من الحرائر ، ومن الإماء ما شئت { فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ } الكاملون في العدوان المتناهون فيه . فإن قلت : هل فيه دليل على تحريم المتعة؟ قلت : لا؛ لأنّ المنكوحة نكاح المتعة من جملة الأزواج إذا صحّ النكاح .

ثالثاً : أن تجعله صلة لقوله : " حَٰفِظِينَ " . والمعنى : أنه يجب حفظ الفرج عن الكل الا فى هاتين الصورتين " الزواج ، أو التسرى " . وهوملك اليمين .

ويقول صاحب صفوة التفاسير : " هم حافظون لفروجهم فى جميع الأحوال الا من زوجاتهم ، وإمائهم المملوكات فإنهن غير ملومين فى ذلك ، وغير مؤاخذين على هذا الفعل . يقول صاحب اللطائف : " لفروجِهم حافظون ابتغاءَ

نَسْلٍ يقوم بحقِّ اللَّهِ ، ويقال ذلك إذا كان مقصودُه التعففَ والتصاونَ عن مخالفاتِ الإثم .

ومثلها فى المعنى قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

[سورة الطلاق:١:٧].

والمعنى : الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – والحكم له ولأمته ، وخص هو بالنداء – صلى الله عليه وسلم – تعظيماً له ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا . يعنى افعل انت وقومك ، فهو نداء على سبيل التكريم والتعظيم . يقول القرطبى : " الخطاب للنبي – صلى الله عليه وسلم – . خوطب

بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً . والمعنى : يا ايها النبي ، ويا أيها المؤمنون إذا أردتم تطليق النساء فطلقتم النساء مستقبلات لعدتهن ، وذلك فى الطهر ولا تطلقوهن فى الحيض .

يقول مجاهد –رضي الله عنه – : " يعنى طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء . يقول المفسرون : " وإنما نهى عن طلاق المرأة وقت الحيض لئلا تطول عليها العدة فتتضرر ، لأن حالة الحيض منفرة للزوج ، وتجعله يتسرع فى الطلاق بخلاف ما إذا كانت طاهراً ، وكونه لم يجامعها فى ذلك الطهر ، لئلا يحصل من ذلك الوطء حمل ، فتنتقل العدة من الحيض لوضع الحمل وفى ذلك ضرر ظاهر ، واضبطوا العدة ، وأكملوها ثلاثى أقراء كاملةً لئلا تختلط الأنساب ، وخافوا الله رب العالمين ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

ولا تخرجوهن من مساكنهن بعد فراقكم لهن إلى أن تنقضى العدة ، ولا تخرجن من البيوت إلاَّ أن تقترف المطلقة عملاً قبيحاً مثل الزنا فتخرج لإقامة الحد عليها . يقول صاحب التسهيل : " نهى الله سبحانه وتعالى أن يخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه ونهاها هي أن تخرج باختيارها فلا يجوز لها المبيت خارجاً عن بيتها ولا أن تغيب عنه نهاراً إلا لضرورة التصرف وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة فإن كان المسكن ملكاً للزوج أومكترى عنده لزمه إسكانها فيه وإن كان المسكن لها فعليه كراؤه مدة العدة وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب والصحيح لزومه لأن الامتناع قد انقطع بالطلاق إلاَّ أن يأتين بفاحشة مبينة اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي على خمسة أقوال الأول أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد قاله الليث بن سعدو والشعبي الثاني أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج

ويسقط حقها من السكني ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب إلا أن يفحشن عليكم الثالث أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك فمتى فعلت شيئاً من ذلك سقط حقها في السكني قاله ابن عباس أيضا وإليه مَاَلَ الطبري الرابع أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكني قاله ابن الفرس وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة الخامس أنه النشوز قبل الطلاق فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكني قاله قتادة لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً المراد به الرجعة عند الجمهور أي أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم .

ويؤيده قراءة : " إلاَّ أن يفحش عليكم " . وهذه الاحكام هى شرائع الله ومحارمة ، ومن يخرج عن هذه الاحكام ، ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ، فقد ظلم نفسه بتعريضها للعقاب ، وأضر بها حيث فوت على نفسه امكان ارجاع زوجته إليه . ويقول الرازى : " { وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ } وهذا تشديد فيمن يتعدى طلاق السنة ، ومن يطلق لغير العدة { فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ } أي ضر نفسه ، ولا يبعد أن يكون المعنى ومن يتجاوز الحد الذي جعله الله تعالى فقد وضع نفسه موضعاً لم يضعه فيه ربه ، والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه ، وقوله تعالى : { لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا } قال ابن عباس : يريد الندم على طلاقها والمحبة لرجعتها في العدة وهودليل على أن المستحب في التطليق أن يوقع متفرقاً .. يقول "ابن القيم " : " إن الله تعالى لما كان يبغض الطلاق ، لما فيه من انفصام عرى الزوجية ، وموافقة عدوه " إبليس " حيث يفرح بافتراق الزوجين وكان مع ذلك يحتاج إليه الزوج والزوجة ، شرعه على وجه تحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة ،

وحرمه على غير ذلك الوجه ، فشرع له أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، طلقةً واحدةً ، ثم يتركها حتى تنقضي عدتها ، فإن زالت أسباب الخلاف ، وحصلت الموافقة كان له سبيل إلى إعادتها ، وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار ، فهذا هوالذى شرعه وأذن فيه .

يقول المفسرون : " الامساك بالمعروف هو إحسان العشرة ، وتوفية النفقة ، من غير قصد المضارة فى الرجعة لتطول عليها العدة ، والفراق بالمعروف هو: اداء الصداق ، والمتعة عند الطلاق ، والوفاء بالشروط مع توفية جميع حقوقها ، وأشهدوا عند الطلاق ، أو الرجعة شخصين من أهل العدالة ، والاستقامة ممن تتقون فى دينهما ، وأمانتهما . يقول صاحب البحر المحيط : " وهذا الاشهاد مندوب إليه عن أبى حنيفة . كقوله تعالى : " وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ " . وعند الشافعية واجب فى الرجعية ، مندوب اليه فى الفرقة ، واشهدوا بالحق دون تحيز لأحد ، خالصاً لوجه الله تعالى من غير تبديل وتغيير ، ودون مراعاة للمشهود له ، أوالمشهود عليه هذا الذى شرعناه من الأحكام إنما ينتفع به ويتعظ المؤمن الذى يخشى الله ، ويخاف العقاب والحساب فى الدار الآخرة ومن يراقب الله ، ويقف عند حدوده يجعل فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يعلمه .

يقول مجاهد : " كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فسكت حتى ظَنِنا أنه رادّها عليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن الله عزّوجلّ قال:(وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا) وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجاً، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، قال الله:(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) .

ويقول المفسرون : " ذكر الواحدي في « أسباب النزول » أنها نزلت في شأن عوف بن مالك الأشجعي إذ أسَرَا المشركون ابنه سالماً فأتى عوف النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه ذلك وأن أمه جزعت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتق الله واصبر» وأمره وزوجَه أن يكثرا قولاً : لا حول ولا قوة إلا بالله فغفل المشركون عن الابن فَسَاقَ عنزاً كثيرة من عنز المشركين وجاء بها المدينة فنزلت الآية ، فيجوز أن يكون نزولها في أثناء نزول هذه السورة فصادفت الغرضين ، ويكون ذلك من قبيل معجزات القرآن .

" وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ " . تكملة للتي قبلها فإن تقوى الله سبب تفريج الكُرَب والخَلاص من المضائق ، وملاحظةُ المسلم ذلك ويقينُه بأن الله يدفع عنه ما يخطر بباله من الخواطر الشيطانية التي تثبطه عن التقوى يحقق وعد الله إياه بأن يجعل له مخرجاً ويرزقَه من حيث لا يحتسب . ومن يعتمد على الله ، ويثق به فيما أصابه ونابه فإن الله كافيه . يقول الصاوى :لقوله تعالى " (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ) أي من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه.

وقيل: أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفايةً. ولم يرد الدنيا، لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل. والأخذ بالأسباب . وفى الحديث : " لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير يغدو خماصاً وتروح بطاناً " .

يقول صاحب التسهيل : " حض على التوكل وتأكيد له لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يُعَوِل على سواه قد جعل الله لكل شئ قدراً أي مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهم ثلاثة أشهر روي أنه لما نزل قوله والمطلقات يتربصن

بأنفسهن ثلاثة قروء قالوا يا رسول الله فما عدة من لاقرء لها من صغر أو كبر فنزلت هذه الآية معلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر فقوله اللائي يئسن من المحيض يعني التي انقطعت حيضتها لكبر سنها وقوله واللائي لم يحضن يعني الصغيرة التي لم تبلغ المحيض وهومعطوف على اللائي يئسن أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره واللائي لم يحضن كذلك ، والحامل تنتهى عدتها بوضع حملها ، سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها .

ومن يخش الله فى أقواله أفعاله ، ويتجنب ما حرم الله علية يسهل عليه أموره ، ويوفقه إلى كل خير ، وذلك هو حكم الله ، وشرعه الحكيم . أنزله الله عليكم أيها المؤمنون لتأتمروا به ، وتعملوا بمقتضاه . ومن يتق الله ربه يمنع عنه ذنوبه ، ويضاعف له الأجر والثواب .

يقول الصاوى : " كرر التقوى لعلمه – سبحانه وتعالى – أن النساء ناقصات عقل ودين ، فلا يصبر عليهن ، وعلى تصرفاتهن إلاَّ أهل التقوى " . ويقول صاحب البحر المحيط : " ولما كان الكلام في أمر المطلقات وأحكامهن من العدد وغيرها ، وكن لا يطلقهن أزواجهن إلاَّ عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل الأمر بالتقوى من حيث المعنى ، مبرزاً في صورة شرط وجزاء في قوله :{ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ }، إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها به وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه إنما فارقها لأمر ظهر له منها ، فلذلك تكرر قوله :{ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ } في العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار والنفقة على المعتدات وغير ذلك مما يلزمه ، يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر. ومن قوله تعالى{ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم } للتبعيض : أي بعض مكان سكناكم . وقال قتادة : إن لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه.

وقال الحوفي : من لابتداء الغاية . و{ مِّن وُجْدِكُمْ } . وقال الزمخشري : فإن قلت : فقوله تعالى: { مِّن وُجْدِكُمْ } . قلت : هوعطف بيان ، كقوله تعالى : { مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم } وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكاناً من مسكنكم مما تطيقونه ، والوجد : الوسع والطاقة .

" لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا " . وقال تعالى الا يكلف نفسا الا ما آتاها ولا تضيقوا عليهن فى السكنى والنفقة حتى تضطروهن إلى الخروج ، أوالافتداء والمعنى أن كانت المطلقة حاملاً فعلى الزوج أن ينفق عليها ولوطالت مدة الحمل حتى تضع حملها ، فإذا رضيت أن ترضع له ولده ، فعلى الرجل أن يعطيها أجر الرضاعة لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء .

ويقول صاحب التسهيل : " وإن أرضعن هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم فأتوهن أجرة الرضاع . وهى النفقة وسائر المؤن وليأمر كل واحد صاحبه بالخير ، من المسامحة ، والرفق والإحسان .

يقول القرطبى : " { فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ } يعني أولادكم { فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ } يعني على إرضاعهن ، وفيه دليل على أن اللَّبن وإن كان قد خلق لمكان الولد فهوملك للأم وإلاَّ لم يكن لها أن تأخذ عليه أجراً وفيه دليل على أن حق الرضاع والنفقة على الأزواج في حق الأولاد { وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ } أي ليقبل بعضكم من بعض إذا أمره بالمعروف وقيل يتراضى الأب والأم على أجر مسمى والخطاب للزوجين جميعاً أمرهم أن يأتوا بالمعروف وما هو الأحسن ولا يقصدوا الضرار ، وقيل المعروف هاهنا لا أن يُقَصرّ الرجل في حق المرأة ونفقتها ولا المرأة في حق الولد ورضاعه لقوله تعالى { وَإِن تَعَاسَرْتُمْ } أي في حق الولد وأجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي المرأة أجرة رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس له إكراهها على إرضاعه بل يستأجر

للصبي مرضعاً غير أمه وذلك قوله : { فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ } أي على قدر غناه { وَمَن قُدِرَ } أي ضيق { عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ } فكان بمقدار القوت {فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ} أي على قدر ما آتاه الله من المال { لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا } أي في النفقة { إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا } يعني من المال والمعنى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني في النفقة { سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا } أي بعد ضيق وشدة غنى وسعة .

ويقول أبو حيان : " وفيه عتاب للأم لطيف كما تقول لمن تطلب منه حاجة فيتوانى عنها : " سيقضيها غيرك " . تريد بذلك أنها لن تبقى غير مقضية ، أنت ملوم ، ويقول الضحاك : " وإن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى ، فإن لم يقبل الطفل مرضعة أُخرى غير أمه ، فى هذا الحال تجبر الأم على إرضاعه بالأجر . وقوله – سبحانه وتعالى – : " لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ " . هذا بيان الانفاق ، فعلى الموسع قدرة ، وعلى الفقير قدره ، وكعناه لينفق الزوج على الزوجه ، وعلى ولده الصغير على قدر وسعه وطاقته .

يقول صاحب التسهيل قال " لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ "أمر بأن ينفق كل واحد على مقدار حاله ولا يكلف الزوج مالا يطيق ولا تضيع الزوجة بل يكون الحال معتدلاً وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس يسراً وعسراً .

ومن ضيق عليه رزقه فكان دون الكفاية ، فلينفق على مقدار طاقته ، وعلى قدر ما آتاه الله من المال ، ولا يكلف الله أحداً إلاَّ بقدر طاقته ، واستطاعته فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى .

يقول أبو السعود فى تفسيره لهذه الآية : { لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا } جَلَّ أوقَلَّ فإنَّه تعالَى لا يكلفُ نفساً إلا وُسعَها وفيهِ تطييبٌ لقلبِ المُعسرِ وترغيبٌ لهُ في بذلِ مجهودِهِ وقد أُكِّدَ ذلكَ بالوعدِ حيثُ قيلَ فى الآية { سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ

يُسْرًا } أي عاجلاً أوآجلاً . أي بعد العسر يسر والضيق بعده الفرج . ويجعل اليسر بعد العسر ، وفيه بشارةً للمعسر والفقير وذلك بفتح باب الرزق عليه .

هذه هى أخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والذى يوجه المسلمين بل الناس اجمعين إلى طرائق الخير ، والعدل ، والرحمة ، والشفقة والإحسان إلى النساء ، وذلك بإيفائهن حقوقهن كاملةً غير منقوصة ، وفى هذه الأخلاق ، والالتزام بها سعادة الزوجين ، و استقامة الأمور ووضع كل شيء فى نصابه ، وبذلك تذهب البغضاء والشحناء ، ويصبح المجتمع المسلم مجتمعاً نظيفاً متماسكاً قوياً ، كما فى ذلك حمايةً للأولاد من التشريد ، والضياع ، إنها أخلاق القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة صلى الله على صاحبها سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – . (١)

1 - الكشاف للزمخشرى .
- مفاتيح الغيب جأ ١١ ، ص ٣٤٧ و ما بعدها .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٣٠٣ بتصرف .
- لطائف الاشارات جـ ٢ ، ص ٥٦٨ بتصرف .
- تفسير القرطبى جـ ١٨ ، ص ١٤٨ .
- صحيح مسلم .
- صحيح البخارى .
- التسهيل فى علوم التنزيل جـ ٤ ' ص ١٢٦.
- البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٢٨٢ .
- محاسن التأويل جـ ١٦ ، ص ٥٨٣٨ .
- القرطبى جـ ١٨ ، ص ١٦٠ .
- تفسير الطبرى جـ ٢٨ ، ص ٩٠ .
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٤ ، ص ٢١٥ .
- التسهيل لعلوم التنزيل ، جـ ٤ ، ص ١٢٨ .
- القرطبى جـ ١٨ ، ص ١٦٨ .
- حاشية الطاوى جـ ٤ ، ص ٢١٧ .
- البحر المحيط جـ ٨ ، ص ٢٨٤ .
- التسهيل جـ ٤ ، ص ١٢٩ .

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم .
٢. السنة النبوية المطهرة .
٣. فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، للإمام الحافظ ابن حجر العسقلانى . نشر دار الريان للتراث بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، تحقيق محب الدين الخطيب .
٤. سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، نشر دار إحياء التراث العربى بالقاهرة .
٥. سنن الدارمى للحافظ الدارمى السمرقندى ، تحقيق أحمد وخالد السبع ، نشر دار الريان للتراث ، القاهرة .
٦. سنن الدارقطنى للإمام على بن محمود الدارقطنى ، نشر عالم الطب ، بيروت . لبنان .
٧. المُفَهم ، شرح صحيح مسلم للقرطبى ، نشر دار الكتاب المصرى ، القاهرة .
٨. عمدة القارئ ، شرح صحيح البخارى للعينى ، نشر دار إحياء التراث العربى ، بيروت . لبنان .
٩. مجمع الزوائد للهيثمى ، نشر موسوعة المعارف ، بيروت . لبنان .
١٠. سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت . لبنان .
١١. السنن الكبرى للإمام البهيقى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا – نشر دار الكتب العلمية – بيروت . لبنان .
١٢. البحر المحيط .
١٣. البحر المديد ، لإبن عجيبة .
١٤. التحرير والتنوير ، لعاشور.
١٥. التسهيل لعلوم التنزيل ، لإبن جزرى .

١٦. التفسير الكبير، للفخر الرازى .
١٧. الزيادة فى كتاب " النهاية " لإبن الأثير.
١٨. المعجم الوافى لكلمات القرآن الكريم تأليف : محمد عتريس ، ط : مكتبة آداب بالقاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ .
١٩. بلاغات النساء لطيفور ، بتحقيق د . عبد الحميد هنداوى ، دار الفضيلة .
٢٠. تفسير ابن كثير.
٢١. تفسير أبوالسعود .
٢٢. تفسير الخازن .
٢٣. تفسير القرطبي .
٢٤. تفسير النسفى .
٢٥. تفسبر القرطبي ، ط . دار الريان للتراث . القاهرة.
٢٦. تفسير المراغى .
٢٧. تفسير الكشاف ، للزمخشرى .
٢٨. حاشية الصاوى على الجلالين .
٢٩. حاشية الشهاب للبيضاوى ، ط . مؤسسة التاريخ العربى .
٣٠. خلق المسلم الشيخ محمد الغزالي، ط . نهضة مصر.
٣١. روح المعانى للألوسى ، ط . دار الفكر سنة ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م
٣٢. فى ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب ، ط . دار الشروق .
٣٣. لطائف الاشارات للإمام القشيرى ، ط . مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ص ١٩٨٣م .
٣٤. مختصر تفسير ابن كثير.
٣٥. مفاتيح الغيب .